١٢ ـ عامر بن شراحيل الشعبي

أحد كبار الفقهاء والمحدثين، ومن أشهر التابعين وجِلَّتِهم، وقد عرف بكثرة الرواية، وسعة الحفظ، قال عنه الحسن البصري: (كان الشعبي واسع العلم، عظيم الحِلْم، وإنه لمن الإسلام بمكان). ولد «الشعبي» سنة تسع عشرة للهجرة المباركة، في زمن الخليفة الثاني «عمر بن الخطاب» ﷺ وعاصر خمسمائة من الصحابة الكرام، فنهل منهم علماً ثرًّا، ومعرفة غزيرة، وينتسب إلى «شَعْب» بطن من همدان وكان يكنى «أبا عمرو».

روايته وعلمُه:

روى «الشعبي» عن أم المؤمنين ـ السيدة «عائشة» ﷺ، كما روى عن «علي بن أبي طالب» و«عبد الله بن عباس»، و«أبو هريرة» و«النعمان بن بشير» و«عدي بن حاتم». و«عبد الله بن عمر» و«جرير، عبد الله بن عمرو بن حزام» و«عمران بن حصين» و«سعد بن أبي وقاص» و«زيد بن ثابت» و«أبي سعيد الخدري» و«أبي موسى الأشعري» ﷺ جميعاً، وسواهم.

أما من رووا عنه فكثر، منهم: الإمام الأعظم «أبو حنيفة النعمان بن ثابت» ﷺ، و«الأعمش» و«مجالد بن سعيد» و«أشعث بن سوار» وغيرهم، وكانت للشعبي ذاكرة متقدة، وحافظة قوية، حتى قال عن نفسه: (ما كتبتُ سوداء في بيضاء، ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته، ولا سمعتُ من امرىء كلاماً ثم أحببتُ أن يعيده عليَّ). ولئن دلَّ هذا على شيء، فإنما يدل على ولعه بالعلم، وشغفه الشديد به، وكان يرى السفر من الشام إلى اليمن من أجل تعلم كلمة واحدة فيها فائدة ليس فيه مضيعة للوقت، وإن اكتنفته المصاعب والمشاق. وقد روى محمد بن أحمد بن الحسن، ثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، ثنا مِنْجاب بن الحارث، ثنا علي بن مُسْهِر، عن أشعث بن سوار، عن ابن سيرين، قال: قدمت الكوفة، وللشعبي حلقة عظيمة، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذٍ كثير.

وعن محمد بن أحمد أيضاً: ثنا محمد بن عثمان، ثنا مِنْجاب، ثنا علي بن مُسْهِر، عن عاصم بن سليمان، قال: ما رأيت أحداً كان أعلم بحديث أهل الكوفة والبصرة والحجاز والآفاق من «الشعبي». وعن محمد بن أحمد أيضاً: ثنا محمد بن عثمان، ثنا محمد بن عبد الله بن نمير، ثنا أبو أسامة، عن ثابت بن زيد، عن سليمان التيمي، عن أبي مِجْلَز، قال: ما رأيت أحداً أفقه من الشعبي. وعن أبي حامد بن جبلة، ثنا محمد بن إسحاق، ثنا مفضل بن غسان الغلابي، ثنا أبي، ثنا أبو بحر البكراوي، عن سليمان التيمي، قال: قال لي أبو مِجْلَز: عليك بالشعبي، فإني لم أر مثله. وذكر محمد بن أحمد، ثنا محمد بن عثمان، ثنا يوسف بن موسى ح، وحدثنا أبو أحمد، محمد بن أحمد، ثنا أحمد بن العباس العدوي، ثنا إسماعيل بن سعيد، ثنا حكام، ثنا عيسى بن معاذ، عن ليث، قال: (كنت أسأل «الشعبي» فيعرض عني، ويجبهني بالمسألة، فقلت: يا معشر العلماء! يا معشر الفقهاء! ترورن عنا أحاديثكم، وتجبهوننا بالمسألة ـ أي: تقابلوننا بما نكره ـ؟). فقال الشعبي: (يا معشر العلماء! يا معشر الفقهاء! لسنا بفقهاء ولا علماء، وكلنا قوم قد سمعنا حديثاً، فنحن نحدثكم بما سمعنا، إنما الفقيه من وَرِعَ عن محارم الله، والعالم من خاف الله).

وعن أحمد بن إسحاق، ثنا الحسن بن هارون بن سليمان، ثنا أبو معمر، ثنا سفيان، عن مالك بن مِغْوَل، قال: قيل للشعبي: أيها العالم! فقال: ما أنا بعالم، وما أرى عالماً، وإن «أبا حصين» رجل صالح. وروي عن الأصمعي، قال: اجتمع «الشعبي» و«الأخطل» عند «عبد الملك»، فلما خرجا، قال «الأخطل» للشعبي: يا شعبي! ارفق بي، فإنك تغرف من آنية شتى، وأنا أغرف من إناء واحد. وروى أبو أحمد؛ محمد بن أحمد، ثنا أحمد بن موسى العدوي، ثنا إسماعيل بن سعيد، ثنا القاسم بن الحكم، عن سفيان، عن بيان، عن الشعبي: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٨]. قال: (بيانٌ للناس) من العمى، (وهدًى) من الضلالة، (وموعظةٌ) من الجهل. ومن أقوال الشعبي: أقل شيء تعلمته الشعر، ولو شئت لأنشدتكم منه شهراً دون أن أعيد شيئاً مما أنشدته، وقال أيضاً: زين العلم حلم أهله. وقال أيضاً: من زوَّج كريمته من فاسق، فقد قطع رحمها. وسئل عن السماء، فقال: موج مكفوف، وسقف مسقوف، بحرس محفوف.

حديث مولى زياد للشعبي:

روى محمد بن علي بن ياسين، ثنا الحسن بن علي بن نصر، ثنا محمد بن عبد الكريم، ثنا الهيثم بن عدي، ثنا ابن عياش، ثنا الشعبي، قال: حدثني «عجلان» مولى «زياد» وكان حاجبه، قال: كان «زياد» إذا خرج من منزله مشيت أمامه إلى المسجد، فإذا دخل مشيت أمامه إلى مجلسه، فدخل مجلسه ذات يوم، فإذا هو بهر في زاوية البيت، فذهبت أزجره، فقال: دعه يقارب ماله، ثم صلى الظهر، ثم عاد إلى مجلسه، ثم صلى العصر، فعاد إلى مجلسه، كل ذلك يلاحظ الهر، فلما كان قبيل غروب الشمس، خرج جرذ فوثب إليه فأخذه، فقال زياد: من كانت له حاجة فليواظب عليها مواظبة الهر يظفر بها. قال: وحدثني «عجلان»، قال: قال لي زياد: أَدْخِلْ عليَّ ويحك! رجلاً عاقلاً، قال: قلت: لا أعرف من تعني، قال: لا يخفى العاقل في وجهه وقدره، فخرجت، فإذا أنا برجل حسن الوجه، مديد القامة، فصيح اللسان، قلت: ادخل، فدخل، فقال زياد: يا هذا! إني قد أردت مشورتك في أمر فما عندك؟ قال: أنا حاقِنٌ ـ الحاقن: من احتبس بوله واجتمع ـ ولا رأي لحاقن، قال: يا عجلان! أدخله المتوضأ، قال: ثم خرج، فقال له: ما عندك؟ فقال: إني جائع، ولا رأي لجائع، قال: يا عجلان! ائت بطعام، فأُتيَ به، قال: فطعم، فقال: سلَ عمَّا بدا لك، فما سأله عن شيء إلا وجد عنده بعض ما يريد، فكتب «زياد» إلى عماله: (لا تنظروا في حوائج الناس، وأحد منكم حاقن أو جائع)، إنها لموعظة حسنة وُعِظ بها «زياد» فوعظ بها عماله.

بيانه في الصوم:

قال أبو علي؛ محمد بن أحمد بن الحسن، ثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، ثنا أبو بلال الأشعري، ثنا محمد بن أبان، عن عبيد اللحام، قال: كنت أمشي مع الشعبي، فقام إليه رجل، فقال: أبا عمرو! ما تقول في قوم يصومون قبل شهر رمضان بيوم، ويصومون بعده يوماً؟ قال: ولِمَ؟ قال: حتى لا يفوتهم شيء من الشهر، قال: هكذا هلكت بنو إسرائيل، يقدمون قبل الشهر يوماً، وبعده يوماً، فصاموا اثنين وثلاثين يوماً، فلما ذهب ذلك القرن جاء قوم آخرون فتقدموا قبل الشهر بيومين، وبعده بيومين، حتى صاموا أربعة وثلاثين يوماً، حتى بلغ صومهم خمسين يوماً، صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته.

من أقضيته:

أخرج «ابن عبد ربه» الأندلسي في «العقد الفريد» قال: ودخل رجل على «الشعبي» في مجلس القضاء، ومعه امرأته، وهي من أجمل النساء، فاختصما إليه، فأدلت المرأة بحجتها، وقرَّبت بَيِّنتها، فقال «الشعبي» للزوج: هل عندك من مَدْفَع؟ فأنشأ يقول:

فُتِنَ الشعبيُّ لمَّا رفع الطَّرْفَ إليها
فتنته بدلالٍ وبِخَطِّيْ حاجبيها
قال لِلْجلواز قَسِّر بْـ ـها وأحضر شاهديها
فقضى جوراً على الخَصْـ ـمِ ولم يقضِ عليها

قال الشعبي: فدخلتُ على «عبد الملك بن مروان» فلما نظر إليَّ تبسَّم وقال:

فُتِنَ الشعبيُّ لمَّا رفع الطَّرْفَ إليها

ثم قال: ما فعلتَ بقائل هذه الأبيات؟ قلت: أوجعته ضرباً يا أمير المؤمنين! بما انتهك من حرمتي في مجلس الحكومة، وبما افترى به عليَّ، قال: أحسنت] [(١)].

وقد ذكر «الثعالبي» في كتاب (التمثيل والمحاضرة) الأبيات، ونسبها إلى «المتوكل الليثي»، وأضاف إليها:

كيف لو أبصر منها نحرها أو ساعديها
لصبا حتى تراه ساجداً بين يديها

فصله بين العامري والأسدي:

عن محمد بن أحمد، ثنا محمد بن عثمان، ثنا أبي، ثنا محمد بن فضيل ح. وحدثنا يوسف بن يعقوب النجيرمي، ثنا الحسن بن المثنى، ثنا عفان، ثنا عبد الواحد بن زياد، ثنا عاصم الأحول، عن الشعبي، قال: أتاني رجلان يتفاخران، رجل من بني عامر، ورجل من بني أسد، والعامري آخذ بيد الأسدي، والأسدي يقول: دعني، وهو يقول: والله لا أدعك، فقلت: يا أخا بني عامر!

(١) العقد الفريد (١/ ٩١ ـ ٩٢).

دعه، وقلت للأسدي: إنه كانت لكم خصال ست، لم تكن لأحد من العرب:

ـ إنه كانت منكم امرأة خطبها رسول الله ﷺ فزوجه الله إياها، وكان السفير بينهما «جبريل» عليه السلام «زينب بنت جحش» فكانت هذه لقومك.

ـ وكان منكم رجل من أهل الجنة، يمشي على الأرض مقنعاً، هو «عُكَّاشة بن مِحْصَن»، وكانت هذه لقومك.

ـ وكان أول لواء عقد في الإسلام لرجل منكم: لعبد الله بن جحش، وكانت هذه لقومك.

ـ وكان أول مغنم قسم في الإسلام، مغنم «عبد الله بن جحش».

ـ وكان أول من بايع «بيعة الرضوان» رجل من قومك، أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! ابسط يدك حتى أبايعك، فقال: «على ماذا؟»، قال: على ما في نفسك، قال: «وما في نفسي؟»، قال: الفتح أو الشهادة، فبايعه «أبو سنان»، وكان الناس يجيئون فيقولون: نبايع على بيعة «أبي سنان»، فكانت هذه لقومك.

ـ وكانوا سبع المهاجرين يوم بدر، فكانت هذه لقومك (اللفظ لعفان) [1].

رأي للزهري:

كان «الزهري» ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: العلماء أربعة: «سعيد بن المسيَّب» في المدينة، و«عامر الشعبي» في الكوفة، و«الحسن البصري» في البصرة، و«مكحول» في الشام.

مجاراة الحجاج في لحنه:

ودخل «الشعبي» على «الحجاج»، فقال: كم عطاك؟ قال: ألفين، قال: ويحك! كم عطاؤك؟ قال: ألفان. قال: فلِمَ لحنت فيما لا يلحن فيه مثلك؟ قال: لحن الأمير فلحنت، وأعرب الأمير فأعربت، ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه، فأكون كالمقرِّع له بلحنه، والمستطيل عليه بفضل القول قبله. فأعجبه ذلك منه ووهبه مالاً. ولما كتب «عبد الملك بن مروان» إلى «الحجاج» ليبعث إليه برجل يصلح للدين والدنيا ليجعله في خاصته، وقع اختياره على «الشعبي» فكان

(١) انظر حلية الأولياء (٤/ ٣١٥ ـ ٣١٦).

سميرَه وأنيسه، وملاذه في المعضلات، ورِدْءَه في الملمات، ورسوله إلى الملوك. وروي أن «ابن هبيرة» خلَّى سبيل أناس كانوا في سجنه بعد أن كلمه فيهم «عامر الشعبي» وقال له: إن كنتَ حبستهم بباطل فالحق يُطْلِقُهم، وإن كنت حبستهم بحق فالعفو يسعهم، فلما سمع ذلك «ابن هبيرة» أطلقهم.

فضيلة الحِلْم:

قال نبي الله ﷺ: **«ما تجرَّعَ عبد في الدنيا جرعة أحب إلى الله من جَرْعة غيظ ردَّها بحِلْم، أو جرعة مصيبته ردها بصبر»**. وشتم رجل «الشعبي»، فقال له: (إن كنتَ صادقاً فغفر الله لي، وإن كنتَ كاذباً فغفر الله لك)، فما أجمل دفع السيئة بالحسنة! وهل يلقَّاها إلا ذو حظ عظيم؟

بيان فضل عمر وعثمان وعلي:

روى سليمان بن أحمد، ثنا إسحاق بن إبراهيم، أنبأنا عبد الرزاق، عن معمر والثوري عن ابن أبجر، قال: قال الشعبي: ما حدثوك عن أصحاب «محمد» ﷺ ورضي عنهم فخذه، وما قالوا برأيهم فبُلْ عليه.

وعن حبيب بن الحسن إملاء، ثنا أبو مسلم الكشي، ثنا عبد الرحمٰن بن حماد الشعبي، ثنا صالح بن مسلم، قال: سألت الشعبي عن مسألة فقال: قال فيها «عمر بن الخطاب» كذا، وقال «علي بن أبي طالب» فيها كذا، فقلت للشعبي: ما ترى؟ قال: ما تصنع برأيي بعد قولهما؟ إذا أخبرتك برأيي فَبُلْ عليه. وعن أحمد بن إسحاق، ثنا أبو يحيى الرازي، ثنا عبد الله بن عمران، ثنا عبد الله بن إدريس، قال: سمعت أشعث، قال: سمعت «الشعبي»، يقول: إذا اختلف الناس في شيء، فانظر كيف صنع «عمر»، فإن «عمر» لم يكن يصنع شيئاً حتى يشاور، قال: فذكرت ذلك لابن سيرين، فقال: إذا رأيت الرجل يخبرك أنه أعلم من «عمر» فاحذره. وعن محمد بن إسحاق بن أيوب، ثنا إبراهيم بن سعدان، ثنا بكر بن بكار، ثنا عمر بن ذر، قال: أقبلت أنا وأبي دار عامر، فقال لي أبي: يا أبا عمرو! قال: لبيك! قال: ما تقول فيما قال فيه الناس من هذين الرجلين؟ قال عامر: أي هذين الرجلين؟ قال: علي وعثمان! قال: إني والله لغني أن أجيء يوم القيامة خصيماً لعلي وعثمان ﷺ، وغفر لنا ولهما.

بين النخعي والشعبي:

سأل «إبراهيم النخعي» عامراً الشعبي عن مسألة، فقال: لا أدري، فقال: هذا والله العالم، سئل عما لا يدري، فقال: لا أدري. وقال «مالك بن أنس» إذا ترك العالم «لا أدري» أصيبت مقاتله. وقالوا: العلم ثلاثة: حديث مسند، وآية محكمة، ولا أدري، فجعلوا لا أدري من العلم، إذ كان صواباً من القول. وقال «عبد الله بن عمرو بن العاص»: من سئل عما لا يدري، فقال: لا أدري، فقد أحرز نصف العلم.

ذُكْرُ الله شكر له:

روى أبو بكر بن مالك ومحمد بن علي بن محمد، قالا: ثنا محمد بن يونس الكريمي، ثنا معلى بن الفضل، قال: ثنا سلمى بن عبد الله بن كعب، قال: حدثني الشعبي، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله تعالى: يا بن آدم! إنك إذا ما ذكرتني شكرتني، وإذا نسيتني كفرتني»**.

تمام الحج:

عن عبد الله بن جعفر، قال: ثنا إسماعيل بن عبد الله ح. وحدثنا سليمان بن أحمد، قال: ثنا علي بن عبد العزيز، قالا: ثنا أبو نعيم، قال: ثنا زكرياء بن أبي زائدة، عن عامر الشعبي، قال: حدثني عروة بن مضرس: أنه حج على عهد النبي ﷺ، فلم يدرك الناس إلا ليلاً، وهم بجَمْع ـ أي: بالمزدلفة ـ، فانطلق إلى عرفات ليلاً، فأفاض منها، ثم رجع إلى جَمْع، فأتى رسول الله ﷺ فقال: أعملتُ نفسي، وأنضيتُ راحلتي، فهل لي من حج؟ فقال: **«من صلى معنا صلاة الغَداة بجَمْع، ووقف معنا حتى تفيض وقد أفاض قبل ذلك من عرفات، ليلاً أو نهاراً، فقد تم حجه، وقضى تفثه»**.

صفة العالم:

عن إبراهيم بن محمد المقري، ثنا عمر بن سنان المنيحي، ثنا أبو عبيدة، ثنا محمد بن عمران، قال: قال رجل للشعبي: إن فلاناً عالم، قال: ما رأيت عليه بهاء العلم، قيل: وما بهاؤه؟ قال: السكينة، إذا علَّم لا يعنِّف، وإذا علم لا يأنف. وعن سليمان بن أحمد، ثنا معاذ بن المثنى، ثنا أبو بكر بن أبي الأسود، ثنا حميد بن الأسود، عن عيسى الحناط، عن الشعبي، قال: إنما كان يطلب هذا

العلم من اجتمعت فيه خصلتان: العقل والنسك، فإن كان عاقلاً، ولم يكن ناسكاً قيل: هذا أمر لا يناله إلا النسَّاك، فلم تطلبه؟ وإن كان ناسكاً، ولم يكن عاقلاً قيل: هذا أمر لا يطلبه إلا العقلاء، فلم تطلبه؟ قال الشعبي: فقد رهبت أن يكون يطلبه اليوم من ليس فيه واحدة منهما، لا عقل ولا نسك. وروى سليمان بن أحمد إملاء، ثنا أبو مسلم الكشي، ثنا عبد الرحمٰن بن حماد، ثنا صالح بن مسلم، قال لي عامر الشعبي: إنما هلكتم بأنكم تركتم الآثار وأخذتم بالمقاييس، ولقد بغَّض إليَّ هؤلاء المسجد، حتى إنه لأبغض إليَّ من كناسة داري، يعني أصحاب الرأي.

وروى سليمان بن أحمد، ثنا عبد الله بن أحمد، حدثني يحيى بن سعيد، ثنا مجالد، عن الشعبي، قال: لعن الله «أرأيت». وقال محمد بن أحمد، ثنا أحمد بن موسى، ثنا إسماعيل بن سعيد، ثنا سفيان، عن ابن شُبْرُمة، عن الشعبي، قال: إنما سميت الأهواء أهواء لأنها تهوي بصاحبها في النار، وعن محمد بن عبد الله، ثنا الحسن بن علي بن نصر، ثنا محمد بن عبد الكريم، ثنا الهيثم بن عدي، ثنا أبي بن عبد الرحمٰن المرادي، عن الشعبي، قال: إنما سَمَّوْا أهل الأهواء، أهل الأهواء، لأنهم يَهْوُون في النار. وروى أبو بكر الطلحي، ثنا محمد بن علي بن حبيب، ثنا نوح بن حبيب، ثنا ابن إدريس، قال: سمعت عمي يقول: سمعت الشعبي يقول: لو أصبت تسعاً وتسعين وأخطأت واحدة، لأخذوا الواحدة، وتركوا التسع والتسعين. وعن الشعبي، قال: مرض الأسد فعاده السباع ما خلا الثعلب، فقال الذئب: أيها الملك! مرضت فعادك السباع إلا الثعلب، قال: فإذا حضر فأعلمني، قال: فبلغ ذلك الثعلب فجاء، فقال له الأسد: يا أبا الحصين! عادني السباع كلهم فلم تَعُدْني، قال: بلغني مرض الملك فكنت في طلب الدواء، قال: فأي شيء أصبت؟ قال: قالوا: خرزة في ساق الذئب ينبغي أن تخرج، قال: فضرب الأسد بمخالبه إلى ساق الذئب، فانسل الثعلب وقعد على الطريق، فمر به الذئب والدماء تسيل منه. قال: فناداه الثعلب: يا صاحب الخف الأحمر! إذا قعدت بعد هذا عند السلطان، فانظر ماذا يخرج من رأسك، وأما هذه فقد خرجت من رجلك. يا لها من حكمة بالغة، وموعظة فذة!

الشعبي مع أسرى الجماجم:

[لما أتي «الحجاج» بأسرى الجماجم، أتي فيهم بعامر الشعبي، و«مُطَرِّف بن

عبد الله الشِّخِّير»، و«سعيد بن جبير»، وكان «الشعبي» و«مُطَرِّف» يريان التَّقِيَّة، وكان «سعيد بن جبير» لا يراها، وكان قد تقدم كِتَابُ «عبد الملك بن مروان» إلى «الحجاج» في أسرى الجماجم أن يعرضهم على السيف، فمن أقر منهم بالكفر في خروجهم علينا فيخلَّى سبيله، ومن زعم أنه مؤمن فيضرب عنقه، فقال الحجاج للشعبي: وأنت ممن ألبَّ علينا مع ابن الأشعث؟ اشهد على نفسك بالكفر، فقال: أصلح الله الأمير، نبا بنا المنزل، وأحزن بنا الجناب، واستحلَسَنا ـ لَزِمَنا ـ الخوف، واكتحَلْنا السهر، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء، قال: لله أبوك، لقد صدقت، ما بررتم بخروجكم علينا ولا قويتم، خلُّوا سبيل الشيخ، ثم قال لمطرِّف: أتقر على نفسك بالكفر؟ قال: أصلح الله الأمير، إن من شَقَّ العصا، وسفك الدماء، ونكث البيعة، وفارق الجماعة، وأخاف المسلمين، لجدير بالكفر، فخلَّى سبيله، ثم قال لسعيد بن جبير: أتقر على نفسك بالكفر؟ قال: ما كفرت فقد آمنت بالله، فضرب عنقه] [(١)]، رحمه الله تعالى. قال الإمام أحمد بن حنبل: (قتل الحجاج «سعيد بن جبير» وما في الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه).

وفاته:

وفي سنة (١٠٣هـ) مات «الشعبي» في الكوفة، فلما أخبر «الحسن البصري» قال: (إنا لله وإنا إليه راجعون، إن كان لقديم السن، كثير العلم، وإنه لمن الإسلام بمكان)، رحمه الله تعالى.

(١) العقد الفريد (٢/ ١٧٦ ـ ١٧٧).

١٣ ـ عطاء بن أبي رباح

فقيه تابعي جليل، حديثه يشفي العليل، أعور، أعرج، أشل، أسود البشرة، ثم أدركه العمى، إلا أن له بصيرة نافذة، وذكاء متقداً، وفهماً ليس له قرين، ذلك هو «عطاء» مفخرة العلماء والفقهاء.

نسبه:

ولد سنة (٢٧هـ) في بلدة «جَنَد» باليمن، أبوه «أبو رباح» ويدعى «أسلم» رجل من النوبة، وأمه سوداء، يقال لها: (بركة)، وكنيته «أبو محمد»، نشأ في مكة، وخالط علماءها، والتقى بفقهائها، وسمع كثيراً من الصحابة، فحصَّل علماً ومعرفة أهَّلاه لأنه ينادي منادي بني أمية بمنًى: لا يفتي الناس في الحج إلا «عطاء بن أبي رباح». فما أعظم فضل الله على العباد! وما أكرمه من جواد!

لزومه المسجد:

قال ابن جريج: كان المسجد فراش «عطاء بن أبي رباح» عشرين سنة. وروى محمد بن أحمد بن الحسن، ثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، ثنا علي بن المديني، ثنا يحيى بن سعيد، عن ابن جريج، قال: كان «عطاء» بعدما كبر وضعف، يقوم إلى الصلاة فيقرأ مائتي آية من سورة البقرة، وهو قائم لا يزول منه شيء ولا يتحرك. وروى محمد بن إسحاق، ثنا أحمد بن منصور، ثنا عبد الوهاب بن همام، أخو عبد الرزاق، قال: سمعت ابن عيينة، يقول: قلت لابن جريج: ما رأيت مصلياً مثلك، قال: لو رأيت عطاء!

سعة علمه وزهده:

تحدث «عبد الله بن عمر» عن سعة علم «عطاء»، قال أبو حامد بن جبلة، ثنا محمد بن إسحاق، قال: ثنا هناد، ثنا قتيبة، عن سفيان، عن عمرو بن سعيد، عن أبيه، قال: قدم «ابن عمر» مكة فسألوه، فقال: تجمعون لي المسائل، وفيكم

«عطاء بن أبي رباح»؟ وعن جعفر بن سليمان، قال: ما رأيتُ مثل ثلاثة: «عطاء بن أبي رباح» بمكة، و«محمد بن سيرين» بالعراق، و«رجاء بن حيوة» بالشام. وروى محمد بن أحمد بن الحسن، ثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثني أبي، ثنا الفضل بن دكين، عن سفيان، عن سلمة بن كهيل، قال: ما رأيت أحداً يطلب بعلمه ما عند الله تعالى إلا ثلاثة «عطاء» و«طاوساً و«مجاهداً». وروى أبو بكر بن مالك، ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني الحسن بن عبد العزيز الجروي، ثنا أيوب بن سويد، قال: سمعت الأوزاعي يقول: مات «عطاء» وهو أرضى أهل الأرض، وكان أكثر من يسند إليه سبعة أو ثمانية. وروى أبو حامد بن جبلة، ثنا محمد بن إسحاق، ثنا عبد الله بن سعد، ثنا ابن أخي جويرية، ثنا مهدي بن ميمون، ثنا معاذ بن سعد الأعور، قال: كنت جالساً عند «عطاء بن أبي رباح» فحدَّث بحديث، فعرض رجل من القوم في حديثه، فغضب وقال: ما هذه الأخلاق؟ وما هذه الطبائع؟ إني لأسمع الحديث من الرجل، وأنا أعلم منه به، فأريه أني لا أحسن شيئاً منه. وكان «عطاء بن أبي رباح» أحد الزاهدين في متاع الدنيا وزينتها، فقد روى أبو بكر بن مالك، ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي، ثنا ابن نمير، ثنا عمر بن ذر، قال: ما رأيت قط مثل «عطاء»، وما رأيت على «عطاء» قميصاً قط، وما رأيت عليه ثوباً يسوى خمسة دراهم. ولما سئل أهل مكة: كيف كان «عطاء بن أبي رباح» فيكم؟ قالوا: كان مثل العافية التي لا يعرف فضلها حتى تفقد.

لمَ كان إقبال الموالي على الدين؟

لم ير الناس مثل «الأوقص المخزومي» قاضي مكة في عفافه وزهده، وقد أخبر جلساءه ذات يوم، فقال: (قالت لي أمي: يا بني! إنك خلقت خلقة لا تصلح معها لمجامع الفتيان عند الفتيان، إنك لا تكون مع أحد إلا تخطتك إليه العيون، فعليك بالدين فإن الله يرفع به الخسيسة، ويتم به النقيصة، فنفعني الله تعالى بكلامها، وأطعتها فوليتُ القضاء)، ولهذا أقبل الموالي على الدين، وقد أخرج ابن عبد ربه عن ابن أبي ليلى. [قال لي عيسى بن موسى، وكان جائراً شديد العصبية: من كان فقيه البصرة؟ قلت: «الحسن بن أبي الحسن»، قال: ثم من؟ قلت: «محمد بن سيرين»، قال: فما لهما؟ قلت: مولیان. قال: فمن كان فقيه مكة؟ قلت: «عطاء بن أبي رباح»، و«مجاهد بن جبر» و«سعيد بن جبير»

و«سليمان بن يسار»، قال: فما هؤلاء؟ قلت: موالي، قال: فمن فقهاء المدينة؟ قلت: زيد بن أسلم و«محمد بن المنكدر» و«نافع بن أبي نجيح»، قال: فما هؤلاء؟ قلت: موالي، فتغير لونه، ثم قال: فمن أفقه أهل قباء؟ قلت: «ربيعة الرأي» و«ابن أبي الزناد» قال: فما كانا؟ قلت: من الموالي، فاربدَّ وجهه، ثم قال: فمن كان فقيه اليمن؟ قلت: «طاوس» وابنه و«همام بن منبه»، قال: فما هؤلاء؟ قلت: من الموالي، فانتفخت أوداجه، وانتصب قاعداً، ثم قال: فمن كان فقيه خراسان؟ قلت: «عطاء بن عبد الله الخراساني»، قال: فما كان «عطاء» هذا؟ قلت: مولى، فازداد وجهه تربداً، واسودَّ اسوداداً حتى خفته، ثم قال: فمن كان فقيه الشام؟ قلت: مكحول، قال: فما كان «مكحول هذا»؟ قلت: مولى، فازداد تغيظاً وحنقاً، ثم قال: فمن كان فقيه الجزيرة؟ قلت: «ميمون بن مهران» قال: فما كان؟ قلت: مولى، قال: فتنفَّس الصعداء، ثم قال: فمن كان فقيه الكوفة؟ قال: فوالله لولا خوفه لقلت: «الحاكم بن عيينة» و«عمار بن أبي سليمان» ولكن رأيت فيه الشر، فقلت: «إبراهيم» و«الشعبي»، قال: فما كانا؟ قلت: عربيان، قال: الله أكبر، وسكن جأشه][1]. وهكذا رفع الإسلام كل وضيع حين دخل في واحته، ووضع كل رفيع أعرض عن دعوته، ولكل امرىء عاقبة ما اختار، فمن أحسن دخل الجنة مع الأبرار، ومن أساء بُلِّغ النار مع الأشرار، والحمد لله الذي ألهمنا ـ بِمَنِّه وكرمه ـ حسن الاختيار.

مجالس الذكر:

روى عبد الله بن محمد بن أحمد بن سليمان الهروي، ثنا محمد بن حفص بن عمر المقرىء، حدثني أبو عبد الملك الفارسي ـ وكان من خيار المسلمين ـ ثنا أبو هزان، قال: سمعت «عطاء بن أبي رباح» يقول: من جلس مجلس ذكر كفَّر الله عنه بذلك المجلس عشرة مجالس من مجالس الباطل، وإن كان في سبيل الله كفَّر الله بذلك المجلس سبعمائة مجلس من مجالس الباطل. قال أبو هزان: قلت لعطاء: ما مجلس الذكر؟ قال: مجلس الحلال والحرام، وكيف تصلي؟ وكيف تصوم؟ وكيف تنكح؟ وكيف تطلق، وتبيع، وتشتري؟ وروى أحمد بن إسحاق، قال: ثنا الحسن بن هارون، ثنا محمد بن بكار، ثنا

(١) العقد الفريد (٣/ ٤١٥ ـ ٤١٦).

زافر بن سليمان، عن أبي بكر الهذلي، عن عطاء بن أبي رباح، قال: ما قال عبد قط: يا رب! يا رب! يا رب! ثلاث مرات، إلا نظر الله إليه، قال: فذكرت ذلك للحسن، فقال: أما تقرأون القرآن؟ ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: ١٩٣ ـ ١٩٥]. وعن الحسن بن أبي جعفر، عن ابن جريج، عن عطاء، قال: النظر إلى العابد عبادة.

حوار بين أبي حنيفة وعطاء:

وروى أبو بكر الطلحي، ثنا عثمان بن عبد الله الطلحي، ثنا سعيد بن سلام البصري، قال: سمعت «أبا حنيفة» يقول: لقيت عطاء بمكة فسألته عن شيء، فقال: من أين أنت؟ قلت: من أهل الكوفة، قال: أنت من أهل القرية الذين فرقوا أهلها شيعاً؟ قلت: نعم! قال: فمن أي الأحناف أنت؟ قلت: ممن لا يسب السلف، ويؤمن بالقدر، ولا يكفِّر أحداً بذنب، فقال لي «عطاء»: عرفت فالزم [(١)]. وروى عطاء، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ، قال: «**زُرْ غِبًّا تزدد حبًّا**».

كره فضول الكلام:

روى أحمد بن محمد بن الحسن، ثنا أحمد بن بديل، قال: سمعت أبا عبيد يقول: دخلنا على محمد بن سوقة، قال: ألا أحدثكم بحديث لعله ينفعكم، فإنه نفعني؟ قال لنا «عطاء بن أبي رباح»: يابن أخي! إن من كان قبلكم، كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى أن يقرأ، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو تنطق في حاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها، أتنكرون؟ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١١] ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٧ ـ ١٨] أما يستحي أحدكم لو نشرت عليه صحيفته التي أملاها صدر نهاره، أكثر ما فيها، ليس من أمر دينه ولا دنياه؟

---

(١) حلية الأولياء (٣/ ٣١٤).

الكتابة للسلطان الجائر لا تجوز:

واستفتاه رجل في جواز الكتابة لسلطانٍ أو والٍ جائر، فردَّ عليه ردًّا يفيد عدم الجواز، فقد روى عبد الله بن محمد، ثنا أحمد بن علي الجارود، ثنا محمد بن عصام بن يزيد، ثنا أبي، ثنا سفيان بن سعيد، عن عبد الله بن الوليد ـ يعني الرصافي ـ قال: قلت لعطاء بن أبي رباح: صاحب قلم، إن هو كتب عاش هو وعياله، وإن ترك افْتَقَر، قال: من الرأس؟ قلت: «القسري»، خالد، قال: قال العبد الصالح ـ أي: «موسى» عليه السلام : ﴿رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧].

من أقواله:

عن أحمد بن إسحاق، ثنا إبراهيم بن محمد بن الحارث، ثنا محمد بن الوليد الزحاف، قال: ثنا ابن جريج، قال: رأيت عطاء يطوف بالبيت، فقال لقائده: أمسكوا واحفظوا عني خمساً: القدر خيره وشره، حلوه ومره من الله تعالى، ليس للعبد فيه مشيئة، ولا تفويض، وأهل قبلتنا مؤمنون حرام دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، وقتال الفئة الباغية بالأيدي والنعال لا بالسلاح، والشهادة على الخوارج بالضلالة.

ـ عن أحمد بن إسحاق، ثنا عبد الله بن أبي داود، ثنا عباس بن الوليد، حدثني أبي، ثنا الأوزاعي، قال: كنت باليمامة وعليها والٍ يمتحن الناس برجل من أصحاب رسول الله ﷺ أنه منافق وما هو بمؤمن، ويأخذ عليهم بالطلاق والعتق والمشي أنه ليسميه منافقاً، وما يسميه مؤمناً، فجعلوا له ذلك، قال: فخرجت في ذلك الغور، فلقيت «عطاء بن أبي رباح» فسألته عن ذلك، فقال: ما أرى بذلك بأساً، يقول الله عز وجل: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران: ٢٨].

ـ وروى عبد الله بن محمد بن جعفر، ثنا عبد الله بن محمد بن زكريا، ثنا سعيد بن يحيى، ثنا زافر بن سليمان، عن عبد العزيز بن خالد الترمذي عن طلحة ـ يعني: ابن عمرو ـ عن عطاء، في قوله تعالى: ﴿لَا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]، قال: لا يلهيهم بيع ولا شراء عن مواضع حقوق الله التي فرضها الله تعالى عليهم أن يؤدوها في أوقاتها.

ـ وعن أحمد بن إسحاق، ثنا عبد الله بن أبي داود، ثنا ابن أبي شعيب قال:

ثنا مسكين بن بكير، عن الأوزاعي، عن عطاء، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢]، قال: ذلك في إقامة الحد عليه.

ـ وعن أحمد بن جعفر بن حمدان، ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، ثنا أبو عبد الله السلمي، ثنا ضمرة، عن عمر بن الورد، قال: قال لي عطاء: إن استطعت أن تخلو بنفسك عشية عرفة، فافعل.

ـ وعن أحمد بن محمد بن سنان، قال: ثنا محمد بن إسحاق، قال: ثنا يحيى بن أبي طالب، ثنا عمرو بن عبد الغفار، ثنا معقل بن عبيد الله الجزري، قال: قلت لعطاء بن أبي رباح: إن ههُنا قوماً يزعمون أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧]، فما هذا الهدى الذي زادهم الله؟. فقلت: ويزعمون أن الصلاة والزكاة ليستا من دين الله، فقال، وتلا: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

ـ وروى أبو محسن بن حيان، ثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن، ثنا عمران بن موسى بن أيوب، ثنا الوليد بن مسلم، عن عبد الله بن حسان، قال: قيل لعطاء: ما أفضل ما أعطي العباد؟ قال: العقل عن الله ﷻ، وهو المعرفة بالدين.

ـ وعن سليمان بن أحمد، ثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا عبد الرزاق، عن يحيى بن ربيعة الصَّنْعَاني، قال: سمعت «عطاء بن أبي رباح»، يقول: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: ٤٨] قال: كانوا يقرضون الدراهم.

ـ وعن أحمد بن محمد بن سنان، ثنا محمد بن إسحاق، ثنا سليمان بن توبة، ثنا هارون بن معروف، ثنا ضمرة، عن أبي إسماعيل الكوفي، قال: سألت «عطاء بن أبي رباح» عن شيء فأجابني، فقلت له: عَمَّن ذا؟ فقال: ما اجتمعت عليه الأمة أقوى عندنا من الإسناد.

ـ وعن سليمان بن أحمد، ثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا عبد الرزاق، عن ابن جريج، قال: سمعت عطاء يقول: إذا تناهقت الحمر من الليل، فقولوا: بسم الله الرحمٰن الرحيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ـ وقال أبو بكر بن مالك، ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي، ثنا

سفيان بن عيينة، قال: قال إسماعيل بن أبي أمية: كان عطاء يطيل الصمت، فإذا تكلم يخيَّل إلينا أنه يُؤَيَّد.

تصديه للفتيا:

كان «عطاء» ﷺ، يفتي الناس أيام الحج، وكانت له حلقة في المسجد الحرام بمكة للإفتاء، فقد روى محمد بن أحمد بن الحسن، ثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، قال: ثنا أبي، ثنا محمد بن فضيل، عن أسلم المنقري، قال: كنت جالساً مع أبي جعفر، فمر عليه «عطاء» فقال: ما بقي على ظهر الأرض أحد أعلم بمناسك الحج من «عطاء بن أبي رباح». سمعت سليمان بن أحمد يقول: سمعت أحمد بن محمد الشافعي يقول: كانت الحلقة في الفتيا بمكة في المسجد الحرام لابن عباس، وبعد ابن عباس، لعطاء بن أبي رباح.

دعاء لعطاء:

ذكر ابن عبد ربه الأندلسي في عقده الفريد، عن الأصمعي، قال: كان «عطاء بن أبي رباح» يقول في دعائه: (اللَّهم! ارحم في الدنيا غربتي، وعند الموت صرعتي، وفي القبور وَحْدتي، ومَقامي غداً بين يديك).

إسناده والرواية عنه:

أسند «عطاء بن أبي رباح» عدداً من الأحاديث، عن عدة من الصحابة الكرام ـ رضوان الله عنهم أجمعين ـ، وسمع من «ابن عباس» و«ابن عمر» و«ابن الزبير» و«عبد الله بن عمرو بن العاص» و«أبي هريرة» و«أبي سعيد» و«زيد بن خالد الجهني». كما روى عنه عدد كبير من التابعين، منهم: «عمرو بن دينار» و«الزهري» و«أبو الزبير» و«قتادة» و«مالك بن دينار» و«يحيى بن أبي كثير» و«أيوب السَّختياني» و«إسماعيل السري» و«حبيب بن أبي ثابت» و«الأعمش»، ومن الأعلام والأئمة من لا يحصون. ومن مرويات «عطاء بن أبي رباح» ما رواه عبد الله بن جعفر، ثنا يونس بن حبيب، ثنا أبو داود، وحدثنا محمد بن أحمد، ثنا أبو خليفة، ثنا أبو الوليد الطيالسي، ومحمد بن كثير، قالوا: ثنا شعبة، عن أيوب، قال: سمعت «عطاء» يقول: إن ابن عباس، قال: أشهد على رسول الله ﷺ أنه خرج ومعه «بلال» يوم عيد، فصلى، ثم خطب، ثم أتى النساء فوعظهن وأمرهن بالصدقة، فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم، و«بلال» يأخذ في طرف ثوبه.

وروى محمد بن أحمد بن علي، ومحمد بن الحسن بن كوثر، قالا: ثنا أحمد بن علي الخراز، ثنا الفيض بن موسى، ثنا سفيان بن موسى الحرمي، ثنا حبيب المعلم، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: أخَّر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، فاحتبس عنها حتى نام الناس واستيقظوا، ثم ناموا، ثم استيقظوا، فقام عمر، فناداه: الصلاة، يا رسول الله! فخرج يقطر رأسه، وقال: «**لولا أن أشق على أمتي، لأخَّرت هذه الصلاة إلى هذه الساعة**». وروى محمد بن أحمد بن الحسن، ثنا عباس بن أحمد بن الحسن الوشاء، ثنا أحمد بن عمر الوكيعي، ثنا قبيصة، ثنا سفيان، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: سئل النبي ﷺ: أي الناس أحسن قراءة؟ قال: (إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله). وعن أبي بكر، محمد بن جعفر بن الهيثم، ثنا محمد بن أحمد بن أبي العوام، ثنا منصور بن صقير، أبو النضر، ثنا عبد الله بن المؤمل بن وَهْب المخزومي، ثنا عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ، لما نزل الحديبية، أتاه «سهيل بن عمرو» فقال رسول الله ﷺ: «**هذا سهيل بن عمرو قد أقبل، وقد سهل لكم الأمر**». وروى الأوزاعي، حدثني عطاء، عن عبد الله بن عباس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن لله تعالى مَلَكاً لو قيل له: التقم السمٰوات السبع، والأرضين السبع بلقمة واحدة لفعل، تسبيحه: سبحانك حيث كنت**». وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل، ثنا أبي، ثنا عبد الرزاق، ثنا عمرو بن حوشب، أخبرني عمرو بن دينار، عن عطاء، عن عبد الله بن عمرو، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليس منا من تشبه بالرجال من النساء، ولا من تشبه بالنساء من الرجال**».

تقسيمه لوقته:

كان «عطاء» مملوكاً لسيدة من سيدات مكة، فكان يجزىء وقته ثلاثة أجزاء، أولها: لمولاته، فيقضي به ما لها عليه من الحقوق، وثانيها: يؤدي فيه ما لله عليه من العبادة، وثالثها: الاستزادة من العلم والمعرفة بمجالسة أصحاب رسول الله ﷺ، والنهل من ينابيعهم الكثيرة، وبخاصة من العبادلة الثلاثة: «ابن عباس» و«ابن عمر» و«ابن الزبير»، ولما رأت سيدته منه هذا الإقبال على الله، عَزَمت على مساعدته في أمر دينه، فمنحته حريته وأعتقته تقرباً إلى الله وزلفى، فتحول من دارها إلى المسجد الحرام، وجعله داره ومأواه ومصلاه، ولم يدع

شيئاً من وقته يضيع سُدًى، بل راح ينفقه بين فائدتين: واحدة لذاته، والأخرى للمسلمين. لقد كان منهوماً بالعلم لا يشبع منه، وكلما حصَّل منه قـطاً قال لنفسه: هل من مزيد؟ وقد عرف كيف يفيد ويستفيد. لقد سمته أمه «عطاء»، ومنحه الله الفطنة والذكاء، فلم يحد عن فحوى تسميته، ولم يجحد ما أسبغ الله عليه من نعمته، فجاد على الناس بما أكرمه به مولاه، ولم يمنعهم خيره وجدواه. ولما كانت السنة الخامسة عشرة بعد المائة ذهب «عطاء» إلى لقاء ربه راضياً مرضياً، رحمه الله تعالى.

obeikandl.com

١٤ ـ مالك بن دينار

فقيه عارف، ومن الله خائف، كان لشهوات الدنيا تاركاً، وللنفس عند غلبتها مالكاً، أحب العلم والعلماء، وخالط الزهاد من الفقهاء، وصان لسانه عن كلام السفهاء، ففاز فوزاً عظيماً.

فضل العلم والعمل به:

وكان «مالك» يقول: من طلب العلم لنفسه، فالقليل منه يكفيه، ومن طلبه للناس، فحوائج الناس كثيرة. وتكلم يوماً فأبكى أصحابه، ثم افتقد مصحفه، فنظر إلى أصحابه، وكلهم يبكي، فقال: ويحكم! كلكم يبكي، فمن أخذ هذا المصحف؟ وقال في العالم الذي لا يعمل بعلمه: العالم إذا لم يعمل بعلمه، زلت موعظته عن القلب، كما يزل الماء عن الصفا. وقال الطائي:

ولم يحمدوا من عالم غير عاملٍ ولم يحمدوا من عامل غير عالم

ومن أقوال أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» ﷺ : أيها الناس! تعَلَّموا كتاب الله تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله. والسؤال عن العلم له آداب ينبغي للسائل أن يتحلى بها، وأول آدابه أن يكون السؤال للتفقه لا للتعنُّت، أو إحراج العالم.

حوار ابن دينار وابن واسع:

روى «الفضيل بن عياض»، قال: اجتمع «محمد بن واسع» و«مالك بن دينار» في مجلس بالبصرة، فقال «مالك بن دينار»: ما هو إلا طاعة الله أو النار، فقال «محمد بن واسع»: ما هو كما تقول، ليس إلا عفو الله أو النار، قال «مالك»: صدقت، ثم قال «مالك»: إنه يعجبني أن يكون للرجل معيشة على قدر ما يقوته، قال «محمد بن واسع»: ولا هو كما تقول، ولكن يعجبني أن يصبح الرجل، وليس له غَداء، ويمسي وليس له عَشاء، وهو مع ذلك راضٍ عن الله. قال «مالك»: ما أحوجني إلى أن يعلمني مثلك.

ورع عابد:

وروي أنه لما حَجَّ «هارون الرشيد» بلغه عن عابد معتزل في جبال تهامة، وهو مجاب الدعوة، فأتاه «هارون» وسأله عن حاله، ثم قال له: أوصني، ومُرْني بما شئت، فوالله لا عَصَيْتُك، فسكت عنه ولم يرد عليه بشيء، فانصرف عنه «هارون»، فقالوا للعابد: ما منعك أن تأمره بما شئت ـ وقد حلف ألَّا يعصَيك ـ أن تأمره بتقوى الله، والإحسان إلى رعيته؟ فخطَّ لهم في الرمل: إني أعظمت الله أن يكون يأمره بأمر فيعصيه فيه، وآمره أنا فيعطيني. وكان «مالك بن دينار» يقول: (من عرف نفسه لم يَضِره ما قال الناس فيه).

قوله في القحط:

لما شكا أهل الكوفة القحط إلى «الفضيل بن عياض» قال لهم: (أمُدَبِّراً غير الله تريدون)، ذلك أن إرسال الغيث أو حبسه من شأن الله تعالى، وهو ـ جَلَّ في علاه ـ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣] وحين شكوا إلى «مالك بن دينار» القحط، قال: (أنتم تستبطئون المطر، وأنا أستبطىء الحجارة).

زهده وورعه:

روى أحمد بن محمد، قال: ثنا أبو العباس السراج، قال: ثنا هارون بن عبد الله، قال: ثنا سيار، قال: ثنا جعفر، قال: سمعت «مالك بن دينار» يقول: لو أني أعلم أن قلبي يصلح على كناسة لجلستُ عليها. وحَذَّر من عقاب الله تعالى، فقد روى أحمد بن محمد، قال: ثنا أبو العباس، قال: ثنا هارون، قال: ثنا سيار، قال: ثنا جعفر، قال: سمعت مالكاً يقول: إن لله تعالى عقوبات فتعاهدوهن من أنفسكم في القلب والأبدان، ضنكاً في المعيشة، ووهناً في العبادة، وسخطةٍ في الرزق، وفي حديث محمد بن إسحاق، قال: ثنا علي بن مسلم، قال: ثنا سيار، قال: ثنا جعفر بن سليمان، قال: سمعت «مالك بن دينار» يقول: (اتقوا السَّحَّارة، فإنها تسحر قلوب العلماء) ـ يعني: الدنيا ـ.

روى أبو حامد بن جبلة، قال: ثنا محمد بن إسحاق، قال: ثنا هارون، قال: ثنا سيار، قال: ثنا جعفر بن سليمان، قال: ثنا مالك بن دينار، قال: قال «موسى» عليه السلام: يا رب! أين أبغيك؟ قال: ابغني عند المنكسرة قلوبهم. وقد أهديت إليه ركوة فقبلها، ثم ردَّها إلى صاحبها، فقد روى أبو بكر بن مالك،

قال: ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: حدثني علي بن مسلم، قال: ثنا سيار، قال الحارث بن نبهان الجرمي، قال: قدمت من مكة، فأهديت إلى «مالك بن دينار» ركوة، قال: فكانت عنده، قال: فجئت يوماً، فجلست في مجلسه، فقال لي: يا حارث! تعالى خذ تلك الركوة فقد شغلت عليَّ قلبي، فقال لي: يا حارث! إني إذا دخلت المسجد، جاءني الشيطان، فقال: يا مالك! إن الركوة قد سرقت، فقد شغلت عليَّ قلبي.

وروى أبو محمد بن حيان، قال: ثنا عبد الله بن محمد بن زكريا، قال: ثنا علي بن قرين، قال: ثنا جعفر بن سليمان، قال: سمعت «مالك بن دينار» يقول: من تباعد من زهرة الحياة الدنيا، فذلك الغالب لهواه، ومن فرح بمدح الباطل فقد أمكن الشيطان من دخول قلبه، يا قارىء! أنت قارىء، ينبغي للقارىء أن يكون عليه دُرَّاعة صوف، وعصار راعٍ يفر من الله إلى الله ﷻ، ويحوش العباد ـ أي: يجمعها ـ على الله تعالى. وروى أحمد بن جعفر بن معبد، قال: ثنا عبيد بن الحسن، وحدثنا عبيد الله بن سليمان، قال: ثنا إبراهيم بن محمد بن الحارث، قالا: ثنا سليمان بن داود قال: ثنا جعفر بن سليمان، قال: سمعت مالك بن دينار يقول: من غلب شهوة الحياة الدنيا، فذلك الذي يَفْرَقُ الشيطانُ من ظله.

رفضه عرض زواج:

ولما عرض عليه رجل أن يزوجه من ابنته الجميلة أبى ذلك، فقد روى عبد الله بن محمد بن جعفر، قال: ثنا أحمد بن الحسين، قال: ثنا أحمد بن إبراهيم، قال: حدثني الهيثم بن معاوية، قال: حدثني شيخ لي، قال: كان رجل من الأغنياء بالبصرة، وكانت له ابنة نفيسة فائقة الجمال، فقال لها أبوها: قد خطبك بنو هاشم والعرب والموالي، فأبيت، أراك تريدين «مالك بن دينار» وأصحابه؟ فقالت: هو والله غايتي، فقال الأب لأخ له: إيت «مالك بن دينار» فأخبره بمكان ابنتي وهواها له. قال: فأتاه، فقال له: فلان يقرئك السلام، ويقول لك: إنك تعلم أني أكثر أهل هذه المدينة مالاً، وأغشاهم ضيعة، ولي ابنة نفيسة، وقد هويتك، فشأنك وهي. فقال «مالك» للرجل: عجباً لك يا فلان! أو ما تعلم أني قد طلقت الدنيا ثلاثاً؟ وعن أحمد بن جعفر، قال: ثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبو عاصم، عمران بن محمد الأنصاري، قال: ثنا أبو قتيبة،

قال: ثنا الحسن بن أبي جعفر، قال: قيل لمالك بن دينار: ألا تتزوج؟ فقال: لو استطعت لطلقت نفسي. وروى أحمد بن جعفر، قال: ثنا عبد الله بن أحمد قال: ثنا هدبة، قال: ثنا سلام بن أبي مطيع، قال: دخلنا على «مالك بن دينار» ليلاً وهو في بيت بغير سراج، وفي يده رغيف يَكْدُمه ـ أي: يعض منه ـ، فقلنا: أبا يحيى! ألا سراج؟ ألا شيء تضع عليه خبزك؟ فقال: دعوني، فوالله، إني لنادم على ما مضى. وعن أحمد بن جعفر، قال: ثنا عبد الله بن أحمد، قال: ثنا أبو معمر، قال: حدثني أبي عن جدي، قال: كنت عند «مالك» فأخذ جلدة ساعده، فقال: ما أكلت العام رُطَبَة ولا عِنَبة ولا بِطِّيخة، فجعل يعد كذا وكذا، ألستُ «مالك بن دينار؟».

وروى أحمد بن جعفر، قال: ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: حدثني علي بن مسلم، قال: ثنا سيار، قال: ثنا عثمان بن إبراهيم الحميري جليس «مالك بن دينار»، قال: سمعت «مالك بن دينار» قال لرجل من أصحابه: إني لأشتهي رغيفاً ليناً بلبن رائب، قال: فانطلق، فجاء به، قال: فجعله على الرغيف، قال: فجعل «مالك» يقلبه وينظر إليه، ثم قال: اشتهيتك منذ أربعين سنة فغلبتك حتى كان اليوم، وتريد أن تغلبني؟ إليك عني، وأبى أن يأكله. وروى أبو محمد بن حيان، قال: ثنا أحمد بن نصر، قال: ثنا أحمد الدورقي، قال: ثنا محمد بن عبيدة، قال: حدثني الحجاج بن نصر، قال: حدثني المنذر أبو يحيى، قال: رأيت «مالكاً» ومعه كراع من هذه الأكارع التي قد طُبِخَتْ، قال: فهو يشمه ساعة بساعة، قال: ثم مر على شيخ مسكين على ظهر الطريق يُتَصَدَّقُ عليه، فقال: هاه يا شيخ! فناوله إياه، ثم مسح يده بالجدار، ثم وضع كساءه على رأسه وذهب، فلقيت صديقاً له، فقلت: رأيت من «مالك» اليوم، كذا وكذا، قال: أنا أخبرك، كان يشتهيه منذ زمان، فاشتراه فلم تطب نفسه أن يأكله، فتصدق به، وقال أبو بحر: محمد بن الحسين بن كوثر، قال: ثنا بشر بن موسى، قال: ثنا عبد الصمد بن حسان، قال: ثنا السري بن يحيى، قال: سمعت «مالك بن دينار» يقول: إنه لتأتي عليَّ السنة لا آكل فيها إلا في يوم الأضحى، فإني آكل من أضحيتي لما يذكر فيه.

روى إبراهيم بن عبد الله بن عبد الله، قال: ثنا محمد بن إسحاق، قال: ثنا قتيبة بن سعيد، قال: ثنا النضر بن زرارة، عن الثقة، قال: قال «مالك»: اشتريت

لأهلي ظبياً بدرهم، وإني لأحاسب نفسي فيه منذ عشرين سنة فما أجد لي مخرجاً. وروى أبو حامد بن جبلة، قال: ثنا أبو العباس السراج، قال: ثنا أبو يحيى، قال: ثنا خالد بن خِداش، قال: ثنا معلى الوراق، قال: سمعت «مالك بن دينار» يقول: خلطت دقيقي بالرماد فضعفتُ عن الصلاة، ولو قويتُ على الصلاة ما أكلت غيره، وعن شعبة، عن أبي بَلْج، قال: كان أُدْمُ «مالك بن دينار» كل سنة ملحاً بفلسين. وروى أبو حامد بن جبلة، قال: ثنا محمد بن إسحاق، قال: ثنا علي بن مسلم، قال: ثنا سيار، قال: ثنا روح بن عمرو القيسي، قال: سمعت «مالك بن دينار»، يقول: دخل عليَّ «جابر بن يزيد» وأنا أكتب، فقال: يا مالك! ما لك عمل إلا هذا؟ تنقل كتاب الله من ورقة، هذا والله الكسب الحلال. وقال أبو حامد بن جبلة، قال: ثنا أبو العباس السراج، قال: ثنا عبد الله بن أبي زياد، قال: ثنا سيار، قال: ثنا جعفر، قال: سمعت «مالكاً» يقول: والله لقد أصبحت ما أملك ديناراً، ولا درهماً، ولا دانقاً، ولئن لم يكن لي عند الله خير، ما كانت لي دنيا ولا آخرة.

وقال أبو بكر بن مالك، قال: ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: ثنا سويد بن سعيد، قال: ثنا محمد بن عمر؛ أبو كريب، قال: ما كان لمالك بن دينار من الدنيا إلا درهمان: درهم لورقه، ودرهم ليشتري به خوصاً يعمل به. وروى أبو بكر بن مالك، قال: ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: حدثني محمد بن كليب، قال: ثنا يوسف بن عطية الصغار، عن مالك بن دينار، قال: من دخل بيتي فأخذ شيئاً فهو له حلال، أما أنا فلا أحتاج إلى دخل، ولا إلى مفتاح، وكان يأخذ الحصاة من حلال المسجد، فيقول: لوددت أن هذه أجزأتني في الدنيا ما عشت، لا أزيد على مصها من الطعام والشراب، وكان يقول: لو صلح لي أن أعمد إلى برد لي فأقطعه باثنين، فأتزر بقطعة، وأرتدي بقطعة لفعلت.

وعن أحمد بن محمد بن سنان، قال: ثنا محمد بن إسحاق السراج، قال: ثنا هارون بن عبد الله، قال: ثنا سيار، قال: ثنا جعفر، قال: ثنا «مالك بن دينار»، قال: لما وقعت الفتنة أتيت «الحسن» أسأله: يا أبا سعيد! ما تأمرني؟ فلا يجيبني، فقلت: يا أبا سعيد! أتيتك ثلاثة أيام أسألك وأنت معلمي فلا تجيبني، والله، لقد هممتُ أن آخذ الأرض بقدمي، وأشرب من أفواه الأنهار، وآكل من

بقل البرية، حتى يحكم الله بين عباده. قال: فأرسل «الحسن» عينيه باكياً، ثم قال: يا مالك! ومن يطيق ما تطيق؟ كلنا والله ما نطيق هذا. وروى أحمد بن محمد، قال: ثنا محمد بن إسحاق، قال: ثنا عبد الله بن أبي زياد، قال: ثنا سيار، قال: ثنا جعفر، قال: كان «مالك بن دينار» يلبس إزار صوف وعباءة خفيفة، فإذا كان الشتاء ففرو، وكبل، وعباءة، وكان يكتب المصاحف، ولا يأخذ عليها من الأجر أكثر من عمل يده، فيدفعه عن البقال فيأكله، وكان يكتب المصحف في أربعة أشهر.

مالك والعشارون:

روى عبد الله بن محمد، قال: ثنا أحمد بن الحسين، قال: ثنا أحمد بن إبراهيم، قال: ثنا الحسين بن زياد، قال: سمعت «منيعاً» يقول: مر تاجر بعشارين فحبسوا عليه سفينته، فجاء إلى «مالك بن دينار»، فذكر ذلك له، فقام «مالك» فمشى معه إلى العشارين، فلما رأوه قالوا: يا أبا يحيى! ألا بعثت إلينا؟ ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن تخلُّوا سفينة هذا الرجل، قالوا: قد فعلنا، قال: وكان عندهم كوز يجعلون فيه ما يأخذون من الناس من الدراهم، فقالوا: ادع الله لنا، يا أبا يحيى! قال: قولوا للكوز يدعو لكم، كيف أدعو لكم، وألف يدعو عليكم؟ أترى يستجاب لواحد ولا يستجاب لألف؟ وروى عبد الله بن محمد، قال: ثنا أحمد بن الحسين، قال: ثنا أحمد بن إبراهيم، قال: ثنا محمد بن عبيدة، قال: ثنا أبو الربيع، عن مسلم أبي عبد الله، قال: دخل «مالك» دار الخراج يوماً ينظر، فإذا هو برجل من هؤلاء الكبار قد وضع الكبل في رجليه، فبينا هو ينظر إذ أُتِيَ بطعامه، فوضع بين يديه، فجعل «مالك» ينظره ويتعجب من أكله ومما هو فيه، فقال له الرجل: تعال، كل، يا أبا يحيى! قال: أخاف إن أكلت مثل هذا، أن يوضع في رجلي مثل هذا. قال: فتقدم إليه ابن عم الرجل، فقال: يا أبا يحيى! إن هذا ابن عم لي، وهو ينفق عليَّ وعلى عيالي، فادعُ الله أن ينجيه. قال: فقال مالك: أتدري ما مثل ابن عمك مثل شاة أكلت عجين قوم، فانتفخ بطنها فماتت، وصاحب العجين يدعو الله على من أكل عجينه، وصاحب الشاة يدعو الله على من قتل شاته، فلأيهم ترى الله أسرع إجابة؟ وعن محمد بن عمرو بن مسلم، قال: ثنا جعفر بن محمد، قال: ثنا يحيى بن مَعين، قال: ثنا سوار بن عُمارة، عن السري بن يحيى، قال: سمعت «مالك بن دينار»

يقول: مثل المؤمن مثل اللؤلؤة، أينما كانت حسنها معها. وروى أبو حامد بن جبلة، قال: ثنا محمد بن إسحاق، قال: ثنا علي بن مسلم، قال: ثنا سيار، قال: ثنا جعفر، قال: سمعت «مالك بن دينار» يقول لثابت البُنَاني: أنا أُبُطُّهم فأخرج القيح والدم، وأنت تدهنهم بالكدا ـ يعني تحدثهم بالرخص، وأنا أشدد عليهم ـ. وبُطَّ الدُّمَّل: شقه ليخرج ما فيه من الأذى.

وقال أحمد بن محمد بن الفضل، قال: ثنا محمد بن إسحاق الثقفي، قال: ثنا هارون بن عبد الله، قال: ثنا سيار، قال: ثنا جعفر، قال: ثنا مالك، قال: أتينا «أنس بن مالك» ـ صفو كل قبيلة ـ أنا وثابت البُنَاني، ويزيد الرقاشي، وزياد النميري، وأشباهنا، فنظر إلينا، فقال: ما أشبهكم بأصحاب «محمد» ﷺ! ثم قال: رؤوسكم ولحاكم، ثم قال: والله، لأنتم أحب إليَّ من عدة ولدي إلا أن يكونوا في الفضل مثلكم، وإني لأدعو لكم بالأسحار.

وروى أبو حامد بن جبلة، قال: ثنا أبو العباس السراج، قال: ثنا عبد الله بن زياد، ثنا سيار، قال: ثنا جعفر، قال: سمعت «مالك بن دينار» يقول: قال بعض أهل العلم: نظرت في كل إثم فلم أجده إلا من حب المال، فمن ألقى عنه حب المال، فقد استراح. وروى أبو حامد بن جبلة، قال: ثنا أبو العباس، قال: ثنا أبو يحيى البزار، قال: ثنا خالد بن خِداش، قال معلى الوراق، قال: كنا يوماً جلوساً عند «مالك بن دينار» فتكلم «مالك» فجاء «أبو عبيدة» بحبل من ليف في طرفه عروتان، فألقى عروة في عنق «مالك» وعروة في عنق نفسه، فقال: مالك! عُدَّ أني وأنت بين يدي الله ﷻ، فماذا تقول؟ قال: فبكى وأبكى القوم. وروى فاروق بن عبد الكبير، قال: ثنا هُشَيْم بن علي السيرافي، قال: ثنا فِطْر بن حماد، قال: ثنا أبي، قال: ثنا مالك، قال: أتيت على قبر، فإذا مكتوب عليه:

يا أيها الركب سيروا إن غايتكم ... أن تصحبوا ذات يوم لا تسيرونا
حثوا المطايا وأرخوا من أزمَّتها ... قبل الممات ومَضُّوا ما تقضُّونا
كنا أناساً كما كنتم فتغيَّرنا ... دهر فسوف كما كنا تكونونا

وقال أبو محمد بن حيان: ثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن، قال: ثنا عمران بن بكار، قال: ثنا أبو التقي، قال: ثنا سلمة بن كلثوم، عن إبراهيم بن أدهم، عن مالك بن دينار، قال: تلقى الرجل وما يلحن حرفاً، وعمله كله لحن.

وعن أبي محمد بن حيان، قال: قرأت على سبح بن حاكم العكلي، عن عبد الجبار، عن عبيد الله، قال: مر «مالك بن دينار» على رجل يغرس فسيلاً، فغبر عنه يسيراً، ثم مر بالغسيل، وقد أطعم، فسأل عن الذي غرسه، فقالوا: مات، ثم أنشأ يقول:

مؤمِّلُ دنيا لتبقى له ... فمات المؤمِّل قبل الأمل
يربي فسيلاً ويعنى به ... فعاش الفسيل ومات الرجل

رواية مالك:

أسند «مالك بن دينار» عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عدداً من الأحاديث، كما روى عن كبار التابعين، كالحسن البصري، ومحمد بن سيرين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، وسواهم. وقيل لمالك بن دينار: ألا ندعو لك قارئاً يقرأ: قال: إن الثكلى لا تحتاج إلى نائحة. ومن أقواله: كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة، وقال: رحم الله من لزم القول الطيب والعمل الصالح والمداومة. وروى محمد بن إسحاق، قال: ثنا هارون بن عبد الله، قال: ثنا سيار، قال: ثنا جعفر، قال: كنا نخرج مع «مالك بن دينار» من الحطمة فنجمع الموتى، ونجهزهم، ثم يخرج على حمار قصير لاطىء، لجامه من ليف، وعليه عباءة مرتدياً بها، قال: فيعظنا في الطريق حتى إذا أشرف على القبور وأحسن بنا أقبل بصوت له محزون يقول:

ألا حَيِّ القبور ومن بهنَّهْ ... وجوه في التراب أحبهنَّهْ
فلو أن القبور أحببن حيًّا ... إذاً لأحببنني إذ زرتهنَّهْ
ولكن القبور صمتن عني ... فأُبْتُ بحسرةٍ من عند هنَّهْ

ومات العابد الزاهد غير آسف على هذه الدنيا الفانية، مات «ابن دينار» ولم يدع أي درهم أو دينار، رحمه الله تعالى.

١٥ ـ الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان

إذا سألت عن أحد الأئمة الأعلام، الذين أخلصوا حياتهم لدين الإسلام، وعظموا نبي الرحمة أشد الإعظام، وقاموا بحق كتاب الله خير قيام، فارجع إلى سيرة هذا الإمام، تجد أروع ما سطرته الأقلام، عن أورع الفقهاء الكرام، إنه الإمام الأعظم «أبو حنيفة النعمان»، الذي ضَنَّ بنظيره الزمان، كما شهد الأفذاد من العلماء والأعيان.

نسبه ومولده:

ولد النعمان بن ثابت «المعروف بأبي حنيفة»، في مدينة الكوفة، سنة ثمانية للهجرة المباركة، وكان من أجلَّة التابعين، فقد أدرك جماعة من أصحاب النبي ﷺ، منهم «أبو حمزة؛ أنس بن مالك» ـ رضي الله عنه ـ والتقى به مراراً عند قدومه الكوفة، وتحدث إليه، وسمع منه، وأسند الموفق المكي إلى «أبي حنيفة» قوله: (رأيت أنس بن مالك في المسجد قائماً يصلي) [١]. واجتمع بعدد من كبار التابعين وأعلامهم، ومنهم: مفتي مكة وأعلم فقهائها ومحدثيها بمناسك الحج «عطاء بن أبي رباح»، و«حماد بن أبي سليمان» و«أبو إسحاق السبيعي» و«عامر الشعبي» و«قتادة» و«محمد بن المنكدر» و«أبو جعفر؛ محمد بن علي بن الحسين بن علي الباقر». وكذلك لقي «ابن شهاب الزُّهري» و«عكرمة» مولى «ابن عباس» و«نافعاً» مولى «ابن عمر» و«يحيى بن سعيد» و«سلمة بن كُهَيْل» وكثيرين سواهم.

من روى عنه من الفقهاء:

روى عن «أبي حنيفة» رضي الله عنه جلَّة من الفقهاء كعبد الله بن المبارك، والأعمش «سليمان بن مهران» الكوفي، و«الفضيل بن عياض»، و«أبي يوسف يعقوب» و«زُفَر بن الهذيل» و«يحيى بن مَعين» و«محمد بن الحسن الشيباني»، وغيرهم.

---

(١) مناقب أبي حنيفة (١/ ٢٧).

وقد أكسبت هذه اللقاءات «أبا حنيفة» علماً ثرًّا، وفقهاً جماً، بَوَّآه منزلة رفيعة، ومكانة مرموقة بين فقهاء المسلمين، فكان أحد أئمة المذاهب الأربعة الأساس، وهو المذهب الحنفي.

أقوال العلماء فيه:

قال محمد بن مزاحم العامري الصدوق، المعروف بأبي وَهْب المَرْوَزِيِّ: (سمعت عبد الله بن المبارك، يقول: رأيت أعبد الناس، ورأيت أورع الناس، ورأيت أعلم الناس، ورأيت أفقه الناس، فأما أعبد الناس: فعبد العزيز بن أبي روَّاد، وأما أورع الناس: فالفضيل بن عياض، وأما أعلم الناس: فسفيان الثوري، وأما أفقه الناس: فأبو حنيفة، ثم قال: ما رأيت في الفقه مثله). فأعظم بها من شهادة! وإن صاحبها لبمكان بين علماء الدين وأعلامهم. وأما أبو عبد الله «محمد بن إدريس» إمام المذهب الشافعي، فقد صدر عنه قولان: الأول: قوله: (ما طلب أحد الفقه إلا كان عيالاً على أبي حنيفة). وأما الثاني فقوله: (من أراد أن يتجر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة). وأما صاحبه «أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم» الأنصاري الكوفي، فقد سأله «هارون الرشيد» أن يصف له «أبا حنيفة» فقال: (كان والله، شديد الذَّبِّ عن محارم الله، طويل الصمت، دائم الفكر، لم يكن مهذاراً ولا ثرثاراً، صائناً لدينه ونفسه، مشتغلاً بما هو فيه عن الناس، لا يذكر أحداً إلا بخير، فقال «هارون»: هذه والله أخلاق الصالحين [١]. وجاء في تاريخ بغداد، عن مِسْعَر بن كِدَام، قال: (أتيت أبا حنيفة في مسجده فرأيته يصلي الغداة، ثم يجلس يعلم الناس العلم إلى الظهر، ثم يصلي، ويجلس للناس طول نهاره إلى العشاء، فقلت في نفسي: متى يتفرغ هذا للعبادة؟ لأتعاهدنه الليلة، فتعاهدته، فلما كان الليل انتصب في المسجد قائماً إلى الصباح، فصلى الفجر، ثم جلس للناس إلى العشاء الآخرة، ثم فعل في الليلة الآتية كفعله في الماضية، ثم تعاهدته، ففعل ذلك أياماً كثيرة، فقلت: لألزمَنَّه حتى أموت)، فيقال: إن مِسْعَراً مات في مسجد أبي حنيفة وهو ساجد [٢].

ورعه وعبادته وعلمه:

كان «أبو حنيفة» ـ رحمه الله ـ على نحو من العبادة فريد، فقد حفظ عنه أنه ختم

(١) مناقب أبي حنيفة للموفق المكي (١/٢٠٨). (٢) تاريخ بغداد (١٣/٣٥٦).

القرآن سبعة آلاف مرة في المكان الذي مات فيه، وكان يجمع القرآن في ركعة واحدة، وقد صَلَّى الغداة بوضوء العشاء أربعين سنة، وكان جيرانه يرحمونه لما يسمعون من صوت بكائه بالليل، فأي عابد كان، وأي ناسك هو؟. قال «سفيان بن عيينة»: (كان أبو حنيفة أكثر الناس صلاة، وأعظمهم أمانة، وأحسنهم مروءة). يقول «أبو يوسف» صاحب أبي حنيفة: (بينا أنا أمشي مع أبي حنيفة، إذا سمعت رجلاً يقول لرجل: هذا «أبو حنيفة» لا ينام الليل، فقال أبو حنيفة: والله، لا يُتَحدَّث عني بما لم أفعل، فكان يحيي الليل صلاة ودعاء وتضرعاً). وعن «أبي يوسف»: (ما رأيت أحداً أعلم بتفسير الحديث من أبي حنيفة). وقال «نعيم بن حماد»: [سمعت أبا عصمة يقول: سمعت أبا حنيفة يقول: (ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعينين، وما جاء عن أصحاب رسول الله ﷺ اخترنا، وما كان غير ذلك فنحن رجال وهم رجال)] [(١)]. وعن الثقة العابد الحافظ «وكيع بن الجراح بن مليح الرُّؤَاسي، قال: (ما رأيت أفقه من أبي حنيفة) [(٢)]. ولقي ابن المبارك «سفيان الثوري» فقال لسفيان: (ما أبعد أبا حنيفة من الغيبة! ما سمعته يغتاب عدواً له قط، فقال سفيان: هو والله، أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهب بها)، ذكره (الموفق المكي في مناقب أبي حنيفة) [(٣)].

وبلغ من ورعه أنه كان إذا حلف بالله أتبع قسمه بصدقة، قال عن ذلك «وكيع بن الجراح»: (كان أبو حنيفة قد جعل على نفسه أنه لا يحلف بالله تعالى إلا تصدق بدرهم، فحلف بالله اتفاقاً، فتصدق بدرهم، ثم جعل على نفسه أنه متى حلف بالله تصدق بدينار، فكان على ذلك، وكان إذا أنفق على عياله نفقة تصدق بمثلها، وكان إذا اكتسى ثوباً جديداً كسا بقدر ثمنه للشيوخ من العلماء والزهاد، وكان إذا وضع بين يديه طعام رفع منه جزءاً للفقراء المساكين) [(٤)].

أمانته وعفته:

كان «النعمان بن ثابت» مثلاً يحتذى في العفة والأمانة، وكان يأبى أخذ

(١) سيرة أعلام النبلاء (٦/ ٤٠١).
(٢) تاريخ بغداد (١٣/ ٣٤٥).
(٣) مناقب أبي حنيفة (١/ ١٦٥).
(٤) تاريخ بغداد (١٣/ ٣٥٨).

عطايا السلطان، ولا يأكل إلا من كسب يده، فقد كان له دكان لبيع الخَزِّ، وقد أبى أن يأخذ من «أبي جعفر المنصو»ر صلة وصله بها، وكانت مجزية، ولم يمنعه من قبولها إلا ورعه ومخافته أن يقول الناس: إنه يأخذ منه حتى يعطيه ما يريد منه. وقد جاء في مناقب «أبي حنيفة» للكردي [١]: [عن يوسف السمتي، قال: أجاز أبو جعفر «أبا حنيفة» بثلاثين ألف درهم لما قدم عليه بغداد، فقال: يا أمير المؤمنين! إني غريب ببغداد، وليس لي منزل، فاجعلها في بيت المال، فإذا خرجت أخذتها، فأجابها «أبو جعفر» إلى ذلك. فلما مات «أبو حنيفة» أخرجت ودائع الناس من بيته، فقال «أبو جعفر»: خَدَعَنا «أبو حنيفة»] [١]. لقد علم «أبو حنيفة» أن «المنصور» لا يقبل برد عطيته، فهداه فكره السديد إلى هذه الحيلة اللطيفة التي انطلت على «المنصور» المشهود له بالدهاء، والذكاء الشديد. وروي عن المسعودي أنه قال: (ما رأيت أحسن أمانة من أبي حنيفة، مات وعنده ودائع بخمسين ألفاً، ما ضاع منها دينار ولا درهم). وهل يستحق الإمامة إلا العفيف الأمين؟، ذلكم هو أبو حنيفة ﷺ. وقال «أحمد بن حرب النيسابوري»: (كان «أبو حنيفة» في العلماء كالخليفة في الأمراء).

توسطه لجار عند الأمير:

أخرج ابن عبد ربه الأندلسي في «العقد الفريد»: [وكان لأبي حنيفة جارٌ من الكيالين مغرمٌ بالشراب، وكان «أبو حنيفة» يحيي الليل بالقيام، ويحييه جاره الكيَّال بالشراب، ويغني على شرابه:

أضاعوني وأي فتًى أضاعوا ليوم كريهة وسَداد ثَغْرِ؟

فأخذه العسس ليلة فوقع في الحبس، وفقد «أبو حنيفة» صوته، واستوحش له، فقال لأهله: ما فعل جارُنا الكيال؟ قالوا: أخذه العسس فهو في الحبس. فلما أصبح «أبو حنيفة»، وضع الطويلة على رأسه، وخرج حتى أتى باب «عيسى بن موسى»، فاستأذن عليه، فأسرع في إذنه ـ لما يعرف من مكانته ـ، وكان «أبو حنيفة» قليلاً ما يأتي الملوك. فأقبل عليه «عيسى» بوجهه، وقال: أمرٌ جاء بك، يا أبا حنيفة! قال: نعم، أصلح الله الأمير، جارٌ لي من الكيالين، أخذه عسس الأمير ليلة كذا فوقع في حبسك، فأمر «عيسى» بإطلاق من أُخِذَ في

(١) مناقب أبي حنيفة للكردي (٢/ ٢٣٥).

تلك الليلة إكراماً لأبي حنيفة. فأقبل الكيال على «أبو حنيفة» متشكراً له، فلما رآه «أبو حنيفة» قال: أضعناك، يا فتى؟ يعرِّض له بقصيدته، قال: لا والله، ولكنك بررت وحفظت] [١]. وقيل: إن ما صنعه «أبو حنيفة» أفضى إلى توبة جاره، وترك الشراب. وكان عبد الله بن داود الحربي، يقول: (ينبغي للناس أن يدعوا في صلاتهم لأبي حنيفة، لحفظه الفقه والسنن عليهم) [٢]. وقال «أبو نعيم» عن «أبو حنيفة»: (كان صاحب غوص في المسائل). وقال «عبد الله بن المبارك»: (لولا أن الله أعانني بأبي حنيفة، وسفيان الثوري لكنت كسائر الناس».

ثمن الجنة:

روى يزيد بن كُمَيْت، قال: (فتح غلام لأبي حنيفة يوماً رزمه خز، فإذا فيها الأحمر والأصفر والأخضر، فقال الغلام: نسأل الله الجنة، فبكى «أبو حنيفة» حتى اختلج صُدْغاه، وأمر بغلق الدكان، وقام مغطًّى الرأس، مسرعاً في مشيته، فلما كان الغد جلست إليه، وقد اصْفَرَّ، فأطرق طويلاً، وكان قليل الكلام، ثم التفت إليَّ، وقال: يابن أخي! ما أجرأنا! يقول أحدنا: نسأل الله الجنة، إنما يسأل الله الجنة من رضي نفسه، إنما يريد مثلنا، يسأل الله العفو. وذكر يحيى بن آدم، قال: سمعت «الحسن بن صالح» يقول: كان «أبو حنيفة النعمان بن ثابت» فهماً متثبتاً، فإذا صح عنده الخبر عند رسول الله ﷺ لم يَعْدُه إلى غيره.

حسن معاملته:

كان «أبو حنيفة» خزَّازاً يبيع الخَزَّ، فأتاه رجل، وقال: يا أبا حنيفة! قد احتجت إلى ثوب خَزٍّ، فقال: ما لونه؟ قال: كذا وكذا. قال: اصبر حتى يقع وآخذه لك، فما دارت الجمعة حتى وقع، فجاءه الرجل، فقال له «أبو حنيفة»: قد وقعت حاجتك، ثم أخرج إليه ثوباً، فأعجبه، فقال: يا أبا حنيفة! كم أزن للغلام؟ فقال: درهماً. فقال: أتهزأ بي؟ قال: لا والله، إني اشتريت ثوبين بعشرين ديناراً ودرهم، فبعت أحدهما بعشرين ديناراً، وبقي هذا بدرهم، وما كنت لأربح على صديق، فأخذه بنفس الثمن، ولم يربح «أبو حنيفة» شيئاً. وجاءته امرأة لتبيعه ثوباً، فسألها عن ثمنه، فقالت: أريد مائة درهم، فقال لها: قيمته أكثر من ذلك، فقالت:

---

(١) العقد الفريد (٦/ ١٥).

(٢) البداية والنهاية (١٠/ ٥٢٧).

هات مائتين، فقال: هو خير من ذلك، قالت: أعطني ثلاثمائة، قال: يساوي أكثر، فقالت: بأربعمائة، فقال: آخذه بأربعمائة، وهو خير من ذلك. فهل سمع تجار العالم منذ وجدت التجارة، بتاجر شريف كأبي حنيفة؟ وهذه حكاية أخرى وقعت لأبي حنيفة تدل على أن حسن المعاملة لديه خلق لا يستطيع التخلي عنه، فقد روى خالد البلوي، قال: جاء رجل إلى أبي حنيفة، فقال: أُرشِدتُ إليك تبيعني ثوبين، أريدهما لأُمّتي ولزوجتي، وأَحْسِنْ بيعي، فقال له: أي لون تريد؟ فوصف له، فقال: انتظرني جمعتين، قال: نعم، فذهب، ثم جاء بعد ذلك، فدفع إليه ثوبين وديناراً واحداً، وقال: إني لم أخسر عليك، إني جعلت لك بضاعة، فرزقت من عند الله ﷻ، فاحمده، فقلت له: أو قيل له: يا أبا حنيفة! هل ذكرت بينكما معرفةً قديمة؟، قال: لا، ألم تسمع إلى قوله: وأَحْسِنْ بيعي. إن «أبا حنيفة» ﷺ لم يكن يبغي الربح المادي، بل كان يرمي إلى الربح المعنوي، وهذا لا يتأتى إلا من حسن المعاملة، وجزاؤها عند الله تعالى. ولكن، ما الموقف الذي يتخذه «أبو حنيفة» حين يقع خطأ في إحدى الصفقات؟ هذا «علي بن حفص» البزار يخبرنا بالجواب، فيقول: (كان «حفص بن عبد الرحمٰن» شريك «أبي حنيفة»، وكان «أبو حنيفة» يُجَهِّزُ عليه ـ أي: يؤمِّن له البضاعة إلى الدكان ـ، فبعث إليه في رفقة بمتاع، وأعلمه أن في ثوب كذا وكذا عيباً، فإذا بعته فبيِّنْ، فباع «حفص» المتاع، ونسي أن يبيِّن، ولم يعلم ممَّن باعه، فلما علم «أبو حنيفة» تصدق بثمن المتاع كله) [(١)]. فهل من تاجر يفعل ذلك إلّا إذا كان «أبا حنيفة النعمان؟».

فِراسة أبي حنيفة:

وكان «أبو حنيفة» صاحب فِراسة فذة، وحَدْس قلَّما يخيب، فقد أخرج صاحب «تاريخ بغداد» قال: [وروى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده، عن إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة، قال: (كان لنا جار طحانٌ رافضيٌّ، وكان له بغلان، سَمَّى أحدهما «أبا بكر»، والآخر «عمر»، فرمحه ـ أي: رفسه ـ ذات ليلة أحدهما، فقتله، فأُخبر «أبا حنيفة» فقال: أنظروا البغل الذي رمحه، الذي سَمَّاه «عمر» فنظروا، فكان كذلك [(٢)].

(١) تهذيب الكمال (٢٩/ ٤٣٧).
(٢) تاريخ بغداد (١٣/ ٣٦٤).

مدى احتراقه للدين:

من رفع شأن الدين رفع الله تعالى شأنه، ومن وضع شأن الدين وضع الله شأنه، وأذله وأهانه، وما المكانة التي وصل إليها «أبو حنيفة» إلا لتقديره لدينه، وعظيم احترامه له، وجعله في أرفع منزلة. فقد روى صاحبه «أبو يوسف»، فقال: قال لي «أبا حنيفة»: لا تسألني عن أمر الدين، وأنا ماسٍ، ولا قائم، ولا متكىء، فإن هذه الأماكن لا يجتمع فيها عقل الرجل.

إقراره بفضل الآخرين:

ذكر المحدث الفاضل «أيوب السَّختياني» عند «أبي حنيفة» فقال: رحمه الله تعالى، رحمه الله تعالى، رحمه الله تعالى، لقد قدم المدينة ـ يعني: أيوب ـ مرة وأنا بها، فقلت: لأقعدَنَّ إليه لعلِّي أتعلق منه بسَقْطَةٍ، فقام بين يدي القبر مقاماً، ما ذكرته إلا اقشعَرَّ له جلدي). وهل يعرف الفضل إلا مَنْ كان مِنْ أهله، أو كان له بهم اتصال؟ ولما أراد «حماد بن زيد» الحج، مَرَّ بأيوب السختياني، ليودعه، فقال له «أيوب» رحمه الله: ـ بلغني أن فقيه الكوفة ـ يعني: «أبا حنيفة» يريد الحج، فإن لقيته فأقرئه مني السلام.

عفوه عمن ظلمه:

كان «أبو حنيفة» رضي الله عنه أبعد الناس عن معاملة من أساء إليه بالمثل، وحين بلغه أن رجلاً تحدث عنه بما يكره، ونال منه، أرسل من يقول له: (غفر الله لك يا أخي! وكلتك إلى من يعلم مني خلاف ما قلته عني)، فخجل الرجل، واستحيا مما كان بدر منه بحق الإمام. والتقاه رجل آخر في الطريق، فنال منه وأسمعه كلاماً قاسياً، فبكى «أبو حنيفة» وقال: (إن الله يعلم مني خلاف ما قلت) فارتبك الرجل، ثم قال له: أسألك بالله، هلَّا جعلتي في حِلٍّ، فقد أخطأت في حقك، فازداد بكاء «أبي حنيفة» لسرعة توبة الرجل، وقال له: أنت في حل.

رفضه للقضاء:

أراد «ابن هبيرة» واسمه «يزيد بن عمر» والي الكوفة لبني أمية إكراه «أبي حنيفة» على منصب القضاء، ليبدو للناس أنه مُوَالٍ لبني أمية، لكن الإمام رفض، فزجَّ به في السجن، ثم أمر بضربه، ثم أخلى سبيله، ولم يلبث «أبو حنيفة» أن وجد سانحة، ففرَّ إلى مكة المكرمة ـ حرسها الله ـ وأكب على الفقه والحديث،

ثم تحول إلى الكوفة حين آلت الخلافة إلى بني العباس، ولما كان زمن خلافة (أبي جعفر المنصور) أراد أن يعرض عليه قضاء بغداد ليثبت بذلك ولاءه له، فاستدعاه، وأقسم عليه «المنصور» ليفعَلَنَّ وليقبَلَنَّ، فأقسم «أبو حنيفة» أَلَّا يفعل وألّا يقبل، فرمى به في السجن، ولم يرحم كبر سنه، كان «المنصور» يريد شراء ضمير «أبي حنيفة» فأجزل له العطاء، وأغراه بمنصب القضاء، مقابل أن يعلن له الولاء، ولكنه نسي أن ضمير هذا الإمام الفاضل، وقف لله تعالى، وليس محل بيع وشراء.

وفاته:

ولم تلبث صحة «أبي حنيفة» أن تدهورت في السجن، وبينما كان قائماً يصلي بين يدي مولاه، دعاه إلى لقائه فلبَّاه، وفارق الحياة، وكانت وفاته سنة مائة وخمسين للهجرة. وقال صاحبه «أبو يوسف»: مات «أبو حنيفة» في النصف من شوال سنة مائة وخمسين. وقال يحيى بن مَعين: سنة إحدى وخمسين ومائة. وقال غيره: سنة ثلاث وخمسين ومائة، والصحيح ما قاله صاحبه «أبو يوسف». وقد زاحم الناس للصلاة عليه، فصلوا عليه ست مرات، وكان ابنه «حَمَّاد» مع آخر من صلَّوْا عليه، ولما علم «ابن جريج» بوفاته استرجع وتوجع، وقال: أي علم ذهب؟ ومات في السنة ذاتها.

مناقب الإمام الأعظم:

كانت مناقب «أبي حنيفة» غزيرة على الحصر والتقصِّي، وقد أشار إلى غيض منها «عبد الله بن المبارك» بهذه الأبيات:

رأيت أبا حنيفة كل يومٍ ... يزيد نبالة ويزيد خِيرَا
وينطق بالصواب ويصطفيه ... إذا ما قال أهل الجَوْر جُورا
يقايس من يقايسه بلُبٍّ ... فمن ذا تجعلون له نظيرا
كفانا فقدَ حمادٍ وكانت ... مصيبتُنا به أمراً كبيرا
فردَّ شماتة الأعداء عنَّا ... وأبدى بعده علماً كثيراً
رأيت أبا حنيفة حين يؤتى ... ويُطْلَبُ علمه بحراً غزيرا
إذا ما المشكلات تدافعتها ... رجالُ العلم كان بها بصيرا

وكان «أبو حنيفة» يفرع المسائل فيما سئل عنه وما لم يسأل، فلما قيل له في ذلك، أجاب: (إننا نستعد للبلاء قبل نزوله، فإذا ما وقع عرفنا الدخول فيه والخروج منه). وروى أحمد بن محمد بن أبي رجاء، قال: (سمعت أبي يقول: أُريتُ «محمد بن الحسن» في المنام، فقلت: إلامَ صرت إليه؟ قال: غُفِرَ لي، قلت: بماذا؟ قال: قيل لي: لم نجعل هذا العلم فيك إلا ونحن نغفر لك، قال: قلت: فما فعل «أبو يوسف؟» قال: فوقنا بدرجة، قال: قلت: فأبو حنيفة؟ قال: في أعلى عليين) [١]. رحمهم الله تعالى.

(١) مناقب أبي حنيفة للموفق المكي (١/ ٤٥٤).

obeikandl.com

١٦ ـ القاسم بن محمد بن الصديق

فقيه ورع شفيق، ومحدث فاضل عريق، وسبط «أبي بكر الصديق» ﷺ، كان لمكارم الأخلاق سابقاً، ولغوامض الأحكام فاتقاً، ولحلاوة الإيمان ذائقاً، وتربَّى في كنف خالته، «عائشة» أم المؤمنين، فنهل العلم والفقه من خير مَعين، ذلكم هو «القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق».

نسبه:

بعد استشهاد «جعفر بن أبي طالب» ذي الجناحين يوم مؤتة، اعتدت امرأته الصحابية الجليلة «أسماء بنت عميس» ولما حَلَّتَ تزوجها «أبو بكر الصديق» ﷺ، فولدت له «محمد بن أبي بكر» ﷺ.

ولما فتح الله على المسلمين، بلاد فارس، في عهد «عمر بن الخطاب» ﷺ، وجيء إليه بالسبايا، وقع في السبي، ثلاث بنات لملك الفرس «يزدجرد» ولم يكن لهن نظير في الحسن والبهاء، ولما قُوِّمْن شراهن «علي بن أبي طالب» ﷺ، ثم أهدى «عبد الله بن عمر» ﷺ واحدة، فأنجبت له ولده «سالم بن عبد الله» وأهدى الثانية لولده «الحسين بن علي» ﷺ فأنجبت له ولده «علي بن الحسين: زين العابدين»، وأهدى الثالثة «محمد بن أبي بكر الصديق» ﷺ فأنجبت له ولده «القاسم بن محمد»، وشاءت إرادة المولى ﷻ أن يكون أحفاد «يزدجرد» من كبار القراء والفقهاء. فسبحانه من آمر حكيم، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون!

ولما توفي «الصديق» ﷺ، تزوجت «أسماء بنت عميس» علي بن أبي طالب وانتقلت مع بنيهما الثلاثة من «جعفر» وابنها «محمد بن أبي بكر» إلى دار «علي»، وأخذ الصغار يكبرون في كنف أمير المؤمنين، أبي الحسن والحسين ﷺ أجمعين، وأرسل أمير المؤمنين «علي بن أبي طالب» ﷺ، «محمد بن أبي بكر الصديق» أميراً له على مصر بعد عزله «قيس بن سعد بن عبادة»، ولما صار الناس

إلى التحكيم، طمع أهل مصر في «محمد بن أبي بكر» فاجترأوا عليه، وبارزوه بالعداوة، وكان «القاسم بن محمد» مع أبيه في مصر.

وذكر الواقدي أن «عمرو بن العاص» قدم مصر في أربعة آلاف فيهم «أبو الأعور السلمي» فالتقوا مع المصريين بالمسناة، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى قتل «كنانة بن بشر بن عتاب التجيبي»، فهرب عند ذلك «محمد بن أبي بكر» فاختبأ عند رجل يقال له: (جبلة بن مسروق)، فدلَّ عليه، فجاء «معاوية بن خديج» وأصحابه فأحاطوا به، فخرج إليهم «محمد بن أبي بكر» فقاتل حتى قتل [(١)]. ولما قتل «محمد بن أبي بكر» ترك من خلفه ذرية ضعافاً، ومن يخاف على تركته إلا خير العَمَّات، وأرحم الأمهات، إنها «الصديقة عائشة بنت الصديق»، فقد احتضنت «القاسم بن محمد» وأختاً له، بعد أن أصبحا لطيمين [(٢)]، وكانت ﵂ قد حرمت من الولد، فأغدقت عليهما من العطف والحنان ما تفتقر إليه أحنى الأمهات وأرعاهن للصغار. وكان «عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق» قد حمل الصغيرين من مصر إلى المدينة. وفكرت أم المؤمنين في ابني أخيها القتيل، فَرأت من مصلحتهما أن تحتمل عبء تربيتهما، ذلك لأن «عبد الرحمٰن» أخاها، لن يقدر على إيفائهما ما يستحقان من الرعاية والاهتمام والمئونة لأنه ذو عيال ونساء، فسألته أن يدعهما لديها، فتركهما لها احتراماً لرأيها ومكانتها، ولكن على مضضٍ.

كان «القاسم بن محمد» صغيراً في السن لكنه نافذ البصيرة وله من الوعي نصيب موفور، وفهم عريض للأمور. يقول «القاسم» عن عمته أم المؤمنين: (حملتنا إلى بيتها وربتنا في حِجْرها، تطعمنا بيديها، ولا تأكل معنا، فإذا ما شبعنا عمدت إلى ما بقي من الطعام، وأكلته. ولم تأل جهداً في غسل أجسادنا، وملابسنا، وترجيل شعورنا، وتلبسنا الثياب البيض النقية، لقد كانت أبَرَّ والدة بنا، وأكثر الأمهات لطفاً وعطفاً، وأوفرهن شفقة ورقة كل هذا الاهتمام بذلته «أم المؤمنين» من أجل بناء الجسد وسلامته، فماذا صنعت من أجل تنمية العقل، وتزكية النفس، والسمو بالروح؟ إن المعلمة الأولى التي كانت مرجع العلماء، وملاذ الفقهاء، وموئل الأُلِبَّاء، تمدهم بنصحها، وتفيض عليهم من الهدى الذي

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣٣٧).

(٢) اللَّطِيم: من مات أبواه، واليتيم من مات أبوه، والعَجِيُّ من ماتت أمه.

قبسته عن رسول رب العالمين، وقرة عيون المسلمين، ما كانت لتنسى أو تغفُل عما ينبغي لها أن تفعله تجاه فِلْذَتَيْ كبد أخيها الراجل. فكانت ﵂ تختار لهما من الآيات ما لا يثقل حفظها عليهما، ثم تنتقي لهما من حديث رسول الله ﷺ ما يعقلانه، وكانت تبصرهما بطريق الخير فترغبهما فيه، وبطريق الشر فتنهاهما عنه، وما تفتأ تقول لهما: هذا حلال أو جائز، وذاك حرام أو لا يجوز، لقد كانت لهما نعم المؤدبة، ونعم المربية، ونعم المرشدة. وإذا اقترب العيد، بادرت إلى التماس الثياب الجديدة لهما، التي تليق بهذه المناسبة السعيدة، ولا بد من حلاقة شعر «القاسم» عشية العيد، حتى يحضر صلاة العيد، وهو في أتم زينته، وأكمل أناقته. وإذا عاد «القاسم» من صلاة عيد الأضحى، جاءت به وبأخته، ثم أشرفت على ذبح أضحيتها بين أيديهما، وبسَّطت لهما حكم الأضحية.

وشعرت السيدة «عائشة» ﵂، أن أخاها «عبد الرحمٰن بن أبي بكر» منقطع عن زيارتها منذ عودته من مصر بولدي أخيهما «محمد» بعد مصرعه. فأرسلت ﵂ إلى «عبد الرحمٰن» ليأتيها، وأقبل إليها «عبد الرحمٰن» عجلان ليرى سبب دعوتها له، ولما دخل عليها وجد الصغيرين جالسين في حجريها فحيَّاها، وبعد أن ردت عليه التحية بأحسن منها، راحت تشرح له بمنطقها العذب وبيانها الساحر، أنها ما كانت لتحرمه من هذين الصغيرين، تطاولاً منها عليه أو لسوء ظنها به، أو لاتهامها له بالتقصير فيما يجب عليه تجاههما، ولكن لإدراكها بعظم ما يتحمله حيال أهله وبنيه، وتلافياً لأية مشكلة قد يثيرها وجودهما مع نسائه وأولادهن، والآن بعد أن اشتد عودهما، وأصبح كل منهما قادراً على القيام بأمر نفسه، فإن شئت أخذهما فدونك. وانطلق بهما «عبد الرحمٰن» وكان سعيداً من كلام أخته، الذي يشرح الصدر ويملأ الفؤاد بالغبطة والسرور.

ولكن مهما حنا «عبد الرحمٰن» عليها، ومهما أغدق عليهما من الحب والحنان، فلن يرقى حبه وحنانه إلى مرتبة التي كفلتهما في مرحلة الطفولة، ثم إن البيت الذي يقطنه «عبد الرحمٰن» يختلف عن بيت أخته «أم المؤمنين»، ذلك أن بيتها ما زال يموج بعبق طيب المصطفى، ويفوح مسكاً من عبير شذاه، كما أن نفخات الوحي ما برحت تملأ رحابه بسناه، ولهذا دأب «القاسم» وأخته على التردد بين بيت عمته وبيت عمه إلى ما شاء الله. وكبر «القاسم» وترعرع، وأكمل حفظ كتاب الله تعالى، وأقبل بعده على الحديث النبوي الشريف، ووجد في

المسجد ضالته، ذلك أن المسجد النبوي كان يغص بحلقات العلم، وكل حلقة يتوسطها نجم أزهر يبث شعاعاته في قلوب مستمعيه. وسمع «القاسم» من «ابن عباس» و«عبد الله بن عمر» و«عبد الله بن الزبير» وروى عنهم، وسمع من «أبي هريرة» وروى عنه. والتقى برافع بن خديج، و«عبد الله بن جعفر» فسمع منهما، وروى عنهما أيضاً، وسمع من «أسلم» مولى «عمر بن الخطاب» ﷺ وروى عنه، كما روى عن «عبد الله بن خباب».

علمه:

كان «القاسم» كالوعاء، حتى إذا امتلأ بالعلم أخذ يفيض على الناس بما أودعه الله فيه، فدخل مضمار الاجتهاد، فبذَّ المجتهدين، وكان من أجلَّة التابعين، وأصبح واحداً من الفقهاء المشهورين، حتى عُدَّ بين فقهاء المدينة السبعة، وهم «سعيد بن المسيَّب» و«عروة بن الزبير» و«أبو بكر بن عبد الرحمٰن بن الحارث» و«خارجة بن زيد بن ثابت» و«سليمان بن يسار» و«عبيد الله بن عبد الله بن عتبة» والسابع «القاسم» ﷺ أجمعين. وأتقن «القاسم بن محمد» السنة حتى بات من أعلم أهلها بها، فاستحق أن يتصدى للتدريس، وصارت له حلقة تجمع نخبة من مريديه، كما كانت هناك حلقة أخرى لابن خالته «سالم بن عبد الله بن عمر» ﷺ. وكان الفارق المميز بينهما أن «القاسم بن محمد» كان يلبس الخزَّ، أما «سالم بن عبد الله» فكان يلبس الصوف، ويظهران بذلك للناس في المجالس، ولم يُنكرِ أحدهما على الآخر ما يصنع. ونقل عن الأصمعي، عن ابن عون أنه قال: رأيتُ ثلاثة لم أر مثلهم: «محمد بن سيرين» بالعراق، و«القاسم بن محمد» بالحجاز، و«رجاء بن حيوة» بالشام.

تجمل السلف للمصائب:

روى سليمان بن أحمد، قال: ثنا إسحاق بن عثمان بن طلحة، عن أفلح بن حميد: أن «عبد الملك بن مروان» لما توفي، أسف عليه «عمر بن عبد العزيز» أسفاً منعه من العيش، وقد كان ناعماً، فاستشعر المِسْحَ ـ كساء من شعر ـ سبعين ليلة، فقال له «القاسم بن محمد»: أعلمت أن من مضى من سلفنا، كانوا يحبون استقبال المصائب بالتجمل، ومواجهة النعم بالتذلل، فراح «عمر» من عشية يومه في مقطعات من حِبَرات أهل اليمن شراؤها ثمانمائة دينار، وفارق ما كان يصنع. وروى محمد بن إسحاق، قال: ثنا قتيبة بن سعيد، قال: ثنا مالك بن أنس، عن

الرحمٰن بن القاسم، عن أبيه، أنه كان يقول: إن هذه الذنوب لاحقة بأهلها.

ما ذكر عن فضله:

قال أبو بكر بن مالك: ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: ثنا الوليد بن شجاع، قال: ثنا ضمرة أن ابن شوذب حدثهم عن يحيى بن سعيد، قال: ما أدركنا بالمدينة أحداً نفضله على «القاسم بن محمد». ولأبي بكر بن مالك أيضاً قال: ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: ثنا أبو عامر الأشعري، قال: ثنا ابن إدريس، قال: ثنا ابن أبي الزناد، عن أبيه، قال: ما رأيت فقيهاً أفضل من «القاسم بن محمد». وروى أبو حامد بن جبلة، قال: ثنا محمد بن إسحاق، قال: ثنا أحمد بن سعيد الدارمي، قال: ثنا حيان بن هلال، قال: ثنا حماد بن زيد عن أيوب، قال: سمعت «القاسم» يُسْأَل بِمنًى فيقول: لا أدري، لا أعلم، فلما أكثروا عليه، قال: والله، ما نعلم كل ما تسألون عنه، ولو علمنا ما كتمناكم، ولا حَلَّ لنا أن نكتمكم. قال: وسمعت يحيى بن سعيد يقول: سمعت «القاسم» يقول: ما نعلم كل ما نُسْأَل عنه، ولئن يعيش الرجل جاهلاً بعد أن يعرف حق الله تعالى عليه خير له من أن يقول ما لا عَلِمَ. وروى أبو حامد بن جبلة، قال: ثنا محمد بن إسحاق، قال: ثنا إسماعيل بن أبي الحارث، قال: ثنا الصباح، قال: ثنا عبد الرحمٰن بن أبي الزناد، عن أبيه، قال: ما رأيت أحداً أعلم بالسنة من «القاسم بن محمد»، وكان الرجل لا يُعَدُّ رجلاً حتى يعرف السنة.

هو أعلم أم سالم؟

روى أحمد بن محمد بن سنان، قال: ثنا أبو العباس السراج، قال: ثنا حاتم بن الليث، قال: ثنا ابن نمير، قال: ثنا يونس بن بكير، قال: ثنا محمد بن إسحاق، قال: جاء أعرابي إلى «القاسم بن محمد»، فقال: أنت أعلم أو «سالم»؟ فقال: ذاك منزل «سالم»، فلم يزده عليها، حتى قام الأعرابي. قال محمد بن إسحاق: كره أن يقول: هو أعلم مني فيكذب، أو يقول: أنا أعلم منه فيزكي نفسه. وعن حماد بن سلمة، عن أيوب، قال: رأيت على «القاسم بن محمد» قلنسوة من خز أخضر، ورداء سابريًّا له علم ملون مصبوغ بشيء من زعفران، ويدع مائة ألف يتلجلج في نفسه منها شيء.

احتضار الصِّدّيق:

لما حضر «الصديق» الموتُ كانت ابنته «عائشة» ﷺ إلى جانبه، ثم دخل عليه «عمر بن الخطاب»، وقد أخرج «ابن عبد ربه الأندلسي» في «العقد الفريد» حديث [«القاسم بن محمد» عن عائشة ـ أم المؤمنين ﷺ: أنها دخلت على أبيها في مرضه الذي مات فيه، فقالت له: يا أبتِ! اعهد إلى خاصَّتك، وأنفذ رأيك في عامتك، وانقل من دار جَهازك إلى دار مُقامك، وإنك محضور ومتصِلٌ بقلبي لوعتك، وأرى تخاذُل أطرافك، وانتقاع لونك، فإلى الله تعزيتي عنك، ولديه ثواب صبري عليك، أَرقأُ فلا أُرقأُ ـ أي: أسكن نفسي فلا تسكن ـ وأشكو فلا أُشْكَى، فرفع رأسه، فقال: يا بنيَّةُ! هذا يوم يُحَلُّ فيه عن غِطائي، وأعاين جزائي، إنْ فرحاً فدائم، وإنْ ترحاً فمقيم. إني اضطلعت بإمامة هؤلاء القوم حين كان النكوص إضاعةً، والحذر تفريطاً، فشهيدي الله ما كان بقلبي إلا إياه، فتبلغت بَصَحْفَتهم، وتعلَّلت بدَرَّة لقْحَتهم، وأقمت صَلاَتي ـ ظهري ـ معهم، لا مختالاً أَشِراً، ولا مكابراً بَطِراً، لم أَعْدُ سدَّ الجَوْعة، وتورية العورة، طَوًى ممغص تهفو له الأحشاء، وتَجِب له الأمعاء، واضطررتُ إلى ذلك اضطرار الجَرِض ـ الذي يبتلع ريقه بجهد ـ إلى الماء المَعِيف ـ المكروه ـ الآجن ـ المتغير الطعم واللون والرائحة، فإذا أنا مِتُّ فردِّي إليهم صَحْفتهم ولقحتهم وعبدهم ورحاهم، ودثارةً ما فوقي اتقيت بها أذى البردة، ووِثارةً ـ ما يوطأ به الفراش ـ ما تحتي اتقيت بها أدنى الأرض، كان حشوهما قطع السعف. ودخل عليه «عمر» فقال: يا خليفة رسول الله ﷺ! لقد كلفت القوم بعدك تعباً، ووليتهم نصباً، فهيهات مِنْ شَقِّ غبارك، فكيف باللحاق بك. وقالت «عائشة» وأبوها يغمَّض:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

قالت «عائشة»: فنظر إليَّ كالغضبان، وقال: ذلك رسول الله ﷺ، ثم أُغمي عليه، فقالت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت وضاق بها الصدر.

قالت: فنظر إليَّ كالغضبان، وقال لي: قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [قّ: ١٩]. ثم قال: انظروا مُلاءتيَّ فاغسلوهما، وكفّنوني فيهما،

فإن الحيَّ أحوج إلى الجديد من الميت] [(١)].

إسناد القاسم للحديث:

جاء في «حلية الأولياء» في ترجمة للقاسم بن محمد، قال: [قال الشيخ رحمه الله: أسند الكثير وعامة مسانيده في المناسك والأحكام، فمن مفاريده وغرائب حديثه: ما حدثناه عبد الله بن جعفر، قال: ثنا يونس بن حبيب، قال: ثنا داود، وحدثنا القاضي أبو محمد بن إملاء، قال: ثنا محمد بن أيوب، قال: ثنا أبو الوليد الطيالسي، قال: ثنا يزيد بن إبراهيم وحماد بن سلمة جميعاً، عن عبد الله بن أبي مليكة، عن القاسم بن محمد، عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]، فقال النبي ﷺ: **«إذا رأيتم الذين يسألون عما تشابه منه فهم أولئك الذين سماهم الله فاحذروهم»**] [(٢)]. وروى عبد الله بن محمد، قال: ثنا ابن عفير الأنصاري، قال: ثنا شعيب بن سلمة، قال: ثنا عصمة بن محمد، قال: ثنا موسى ـ يعني ابن عقبة ـ عن القاسم بن محمد، عن عائشة: قالت: قال رسول الله ﷺ: **«ما من عبد يكف بصره عن محاسن امرأة، ولو شاء أن ينظر إليها نظر، إلا أدخل الله تعالى قلبه عبادة يجد حلاوتها»**. وعن محمد بن أحمد بن الحسن، قال: ثنا بشر بن موسى، قال: ثنا يحيى بن إسحاق السيلميني، قال: ثنا ابن لهيعة، عن خالد بن أبي عمران، عن القاسم بن محمد، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: **«أتدرون من السابقون إلى ظل الله عز وجل»**، قالوا: الله ورسوله أعلم؟ قال: **«الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سئلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم»**.

وروى أبو بكر بن خلاد، قال: ثنا الحارث بن أسامة، قال: ثنا عبد الوهاب بن عطاء، قال: ثنا عباد بن منصور، عن القاسم بن محمد، عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ، قال: **«إن الله تعالى يربي لأحدكم اللقمة كما يربي أحدكم فصيله، حتى يجعلها له مثل جبل أحد»**. وعن سليمان بن أحمد، قال: ثنا إسحاق بن إبراهيم، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن أيوب،

(١) العقد الفريد (٣/ ٢٣١ ـ ٢٣٢).
(٢) حلية الأولياء (٢/ ١٨٥).

عن القاسم بن محمد، عن عائشة: أن النبي ﷺ كان إذا رأى الغيث، قال: «**اللَّهم صَيِّباً هَنِيّاً**». رواه نافع مولى ابن عمر، عن القاسم نحوه. وعن عبد الله بن جعفر، قال: ثنا يونس بن حبيب، قال: ثنا أبو داود، قال: ثنا موسى بن تليدان ـ من آل أبي بكر الصديق ﷺ ـ قال: سمعت «القاسم بن محمد» يحدِّث عن عائشة ﷺ، قالت: أعظم النكاح بركة أيسره مئونة، فقالت له أي عائشة ﷺ: أخبرتك عن رسول الله ﷺ، فقال: هكذا حدثت، وهكذا حفظت ـ رواه عمر بن علي المقدمي، وعبد الصمد، وسعيد بن عامر بن موسى مرفوعاً، ورواه حماد بن سلمة، عن يزيد بن سخبرة، عن القاسم، عن عائشة مرفوعاً. وقال أبو بكر بن خلاد، قال: ثنا الحارث بن أبي أسامة، قال: ثنا يزيد بن هارون، قال: ثنا حماد بن سلمة، عن ابن سخبرة، عن القاسم بن محمد، عن عائشة ﷺ عن النبي ﷺ. قال: «**أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة**»، ورواه أحمد بن حنبل، وأبو خيثمة، والناس عن يزيد بن هارون مثله، ورواه صفوان بن سليم، عن عروة، عن عائشة، نحوه.

استشارة عمر له:

وكان «القاسم بن محمد» وابن خالته «سالم بن عبد الله» ممن شاورهما «عمر بن عبد العزيز» في توسعة الحرم النبوي الشريف، فوافقاه.

وفاته:

ولما كبر «القاسم بن محمد» كف بصره بعد أن نيَّف على السبعين، وقد روي عن رجاء بن أبي سلمة، قال: مات «القاسم بن محمد» بين مكة المدينة حاجاً أو معتمراً، فقال لابنه: (سُنَّ عليَّ التراب سَنًّا، وسَوِّ على قبري، والحق بأهلك، وإياك أن تقول: كان وكان) رحمه الله تعالى.